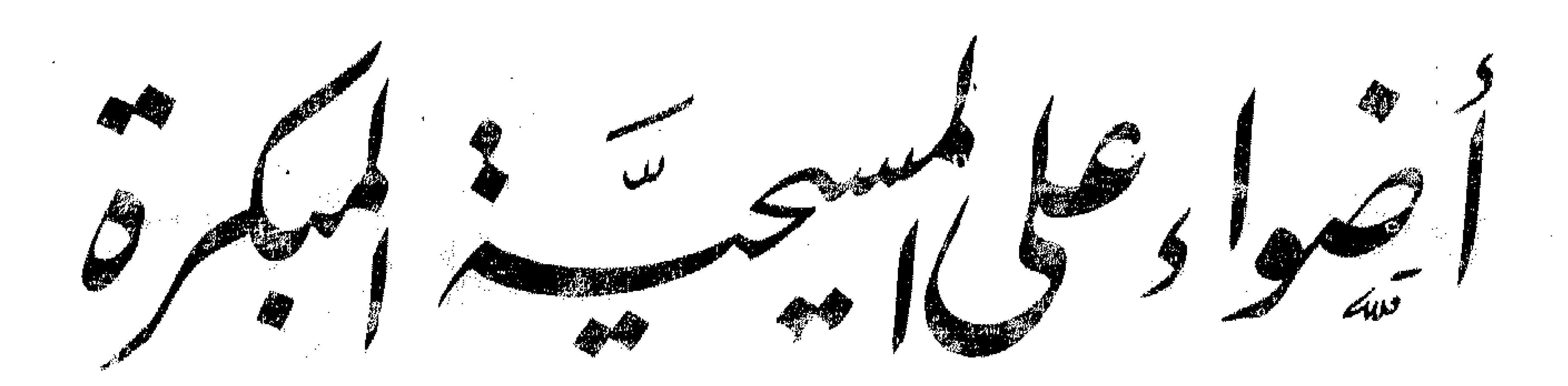
دكتور
محمد السيد محمد عبد الغني
أستاذ مساعد التاريخ اليوناني والروماني
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



١٩٩٧

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير ـ الازاريطة ـ ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس ـ الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦

أضواء على المسيحية المبكرة

دكتور
محمد السيد محمد عبد الغني
أستاذ مساعد التاريخ اليوناني والروماني
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٧

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الازاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦



١- المسيحية المبكرة من خلال كتبات المؤرخين الرومان والمفكرين الوثنيين ورجال الكنيسة.

الغرض من هذا البحث كما يتضح من عنوانه إلقاء ضوء جديد ـ قدر الإمكان ـ على نشأة وانتشار الديانة المسيحية. وعلى الرغم من صعوبة هذه المهمة لأن المسيحية كديانة قد كتب عنها الكثير فما عسى باحث أن يضيف لما هو معروف عنها، إلا أن الأمر ليس بمستحيل من زاوية تخصص الباحث وهو التاريخ اليونانى والرومانى واعتماده على مصادر تلك الفترة من كتابات المؤرخين المعاصرين واعتماده كذلك على الوثائق البردية المعاصرة لذلك الحدث وهو نشأة وانتشار المسيحية. الباحث إذن لن يتطرق إلى الحديث فى الأمور العقائدية واللاهوتية فهى ليست من تخصصه فى شيء وإنما سيتناول الموضوع من منظور تاريخى يرتكز على الوثائق وشرحها وتحليلها والخروج منها بمعلومات قد تلقى أضواء جديدة على بعض النقاط والتفاصيل.

ولما كانت الوثائق البردية المتصلة بالموضوع من القرنين الأول والثانى الميلادى تكاد تكون نادرة لأن المسيحيين الأوائل فى تلك الفترة كانوا يعتنقون ديانتهم بشكل سرى حتى لا يتعرضوا للمضايقات والاضطهاد من قبل الإدارة الرومانية كما سنرى على صفحات هذا البحث فإن اعتماد الباحث عليها سيكون محدوداً نسبياً. هذا يعنى أن المسيحية لم تنعكس فى وثائق ومراسلات معتنقيها فى تلك الفترة بالإضافة إلى أنه لم تكن هناك أية إشارات عن المسيحية فى الوثائق القانونية والإدارية وما شابهها من تلك الفترة، وإن كان هذا لا يمنع من وجود بعض القرائن المتصلة بالمسيحية فى بعض البرديات الأدبية مثل مقتطفات من إنجيل يوحنا اتفق علماء البرديات إلى نسبتها للنصف الأول من القرن الثانى الميلادى (P. RYL>III, 457)، وربما كانت من العقد الثانى من ذلك القرن وتعتبر أقدم قطعة موجودة من الكتابات المسيحية كما أنها تنقض

الرأى القائل بأن الإنجيل الرابع لم يكتب إلا فى فترة متأخرة من القرن الثانى، كما عُثِرَ فى أوراق البردى من فترة لاحقة فى القرن الثانى (ربما بين ١٢٥-١٦٥م) على شذرات من إنجيل غير معروف وهى شذرات من البردى من المتحف البريطانى نشرها العالمان ت. سكيت وهـ. إ. بيل عام ١٩٣٥م. كما أن هناك بردية من قرية كرانيس القديمة بالفيوم (P. Fay. 2) هى عبارة عن أنشودة غنوصية عن المسيح من القرن الثانى مما يدل على وجود هذه الهرطقات فى مصر الوسطى فى القرن الثانى الميلادى [١].

هذه البرديات الأدبية المتصلة بالمسيحية من القرن الثانى الميلادى تعتبر من ناحية دليلا قوياً على انتشار المسيحية فى مصر خلال ذلك القرن وحاجة التجمعات المسيحية إلى كتابة وتدوين الأناجيل المعروفة حينئذ للتعرف على شئون دينهم، ولكنها من ناحية أخرى لا تعطينا فكرة واضحة عن كيفية دخولها أو انتشارها فى مصر أو عن المسيحيين الذين دونوا هذه الأناجيل أو استعملوها. إن البردى الوثائقى عن المسيحية فى مصر يبدأ فى الواقع مع بداية النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى مع اضطهاد الإمبراطور الرومانى ديكيوس وازدادت بعد ذلك فى خلال النصف الثانى من ذلك القرن والنصف الأول من القرن الرابع.

إزاء هذا الوضع المتصل بالبردى الوثائقى حول المسيحية وندرته فى خلال القرنين الأول والثانى فلا مفر من الحديث عن هذه الفترة من خلال كتابات المؤرخين المعاصرين للأحداث أو اللاحقين عليها بفترة وجيزة من مؤرخين رومان ومن آباء الكنيسة وأساقفتها ومن الكتاب الوثنيين المناوئين للمسيحية مع الحيطة الواجبة فى التعامل مع هذه الكتابات وفهم السياق والدوافع لدى كل طرف من الأطراف، ثم يلى ذلك الجزء المتصل بالوثائق البردية من القرنين

الثالث والرابع وهو جزء حيوى فى هذه الدراسة من حيث مدى اضافته للموضع والأضواء الطريفة التى يلقيها على بعض نقاط الموضوع.

إذا بدأنا بالأحداث المبكرة فى المسيحية وبداية انتشارها كديانة سنجد أن أحداث هذه الفترة تغطيها مصادر مسيحية لاحقة ومتأخرة فى تاريخها عن هذه الأحداث مثل الكاتب المسيحى ترتليان المولود فى قرطاجة حوالى منتصف القرن الثانى الميلادى والذى كتب دفاعاً عن المسيحية ضد هجوم الوثنيين عليها والأسقف المسيحى يوسيبيوس أسقف قيصرية أيام قنسطنطين والذى توفى بعد وفاة قنسطنطين عام ٣٣٧م بفترة قصيرة بعد أن كتب مؤلفه المعروف «التاريخ الكنسى».

يذكر ترتليان فى مواضع متفرقة من مؤلفه ما حلّ بالمسيح على يد اليهود وموقف الإمبراطور الرومانى (تيبيريوس حينذاك) وكذلك مجلس السناتو من تلك الأحداث التى وقعت فى فلسطين فيقول:

«أحال تيبيريوس ـ الذى دخل مسمى المسيحيين فى عهده إلى العالم ـ ما بلغه من أنباء من سوريا الفلسطينية (أى إقليم فلسطين فى ولاية سوريا الرومانية) ـ وهى الأنباء التى أفصحت عن حقيقة ألوهية المسيح ـ إلى مجلس السناتو بعد أن أعطاها تصويته الأول وصدّق عليها. ولكن السناتو رفض هذا الأمر لأنه لم يسبق أن أقرّه من قبل. أما قيصر (تيبيريوس) فقد أصرّ على موقفه وهدّد بإلحاق الأذى بمن يتهم المسيحيين»(٢).

وقد رفض السناتو رأى الإمبراطور فى هذا الشأن لأنه «كان هناك مرسوماً قديماً يقضى بألا يرسّم الإمبراطور إلهاً (جديداً) بغير موافقة السناتو» حسب قول ترتليان فى أول الفقرة السابقة (٣) وهو أمر يثير سخرية واستهجان ترتليان

إذ كيف تعتمد ربوبية أو ألوهية ربٍّ على قرار بشر إذ معناه أنه إذا لم يرض البشر عن هذا الربِّ فلن يكون إلهاً بحال من الأحوال[٤].

ويروى ترتليان فى دفاعه عن المسيح والمسيحية رواية الأيام الأخيرة للمسيح على الأرض حينما بلغ اضطهاد اليهود له ذروته حيث أحضروه إلى بيلاطيس البنطى ـ الحاكم الرومانى على سوريا آنذاك ـ ومن خلال غضب وهياج قضاتهم ابتزوا بيلاطيس وانتزعوا منه الأمر بتسليم عيسى إليهم لصلبه[٥] ثم قدم بيلاطيس البنطى تقريراً عن أمر المسيح برمته إلى قيصر (الذى كان آنذاك تيبريوس) وكان بيلاطيس نفسه فى قراره نفسه مسيحياً ! نعم وكذلك القياصرة كان يمكن أن يؤمنوا بالمسيح لولا حاجة العالم إليهم أو لو أنه كان بإمكان القياصرة أن يكونوا مسيحيين»[٦]

(ربما قصد ترتليان هنا القول بأن الأباطرة الأوائل كانوا مقتنعين بالمسيحية فى قرارة أنفسهم ولكنهم كانوا يخشون مواجهة الغالبية الساحقة من رعاياهم الوثنيين بهذه العقيدة)

وينقل المؤرخ الكنسى المشهور يوسيبيوس ـ أسقف قيصرية الذى ازدهر فى عصر قسطنطين فى النصف الأول من القرن الرابع ـ هذه الأحداث عن ترتليان ولكن يضيف إليها بعضاً من تعليقاته وأحياناً يبدل فى نص ترتليان كلمة تخدم غرضه فى إظهار مدى حماسه للمسيحية كرجل دين مسيحى كبير كان على يمين الإمبراطور قسطنطين فى مجمع نيقيا المسكونى عام ٣٢٥م[٧] . فمن أمثلة تعليقاته ذات الصبغة الدينية على الأحداث التى رواها نقلا عن ترتليان أنه اعتبر أن عدم موافقة مجلس السناتو على التقرير الذى أحاله إليهم الإمبراطور تيبريوس بشأن صلب المسيح وألوهيته ليست بسبب قرار

السناتو القديم بأنه لا يمكن الاعتراف بالألوهية لأحد من جانب أباطرة الرومان ما لم يصوت السناتو على الأمر ويصدر مرسوماً بذلك «وإنما فى الحقيقة لأن التعاليم الإلهية المنقذة ليست بحاجة إلى تصديق أو إعلان بقرار بشرى»(٨). ومن أمثلة إبداله لكلمة فى نص ترتليان بكلمة أخرى لغرض فى نفسه أنه ذكر أن الإمبراطور تيبريوس حين رفض مجلس السناتو القرار الذى أحاله إليه الإمبراطور بشأن المسيح «أصرّ الإمبراطور على رأيه وهدّد بإعدام من يتهمون المسيحيين»(٩) فى حين أن نص ترتليان الأصلى يذكر أن الإمبراطور هدّد « بإلحاق الأذى» بمن يتهمون المسيحيين.

هذه الروايات «المسيحية» عن بداية ظهور هذه الديانة وما صاحبها من أحداث توحى بأن الحاكم الرومانى على يهودا الذى حدثت فى عهده أحداث الأيام الأخيرة للمسيح وهو بيلاطوس البنطى كان «مسيحياً فى قرارة نفسه» وأنه ما كان ليسلم المسيح لليهود لولا أنه تعرض لضغط وابتزاز من جانب اليهود، وسياق الروايتين ـ الأصلية لترتليان والمنقولة ليوسيبيوس ـ يبرز هذه الجزئية ويلح عليها بصورة ضمنية تتمثل فى ذلك الحماس من جانب الإمبراطور الرومانى تيبريوس للمسيحية ولألوهية المسيح إثر تلقيه تقرير واليه بيلاطوس البنطى عن الموضوع مما يوحى بأن ذلك التقرير قد صيغ بطريقة مقنعة للإمبراطور جعلته يصدّق على التقرير ويصوّت عليه أولاً قبل مجلس السناتو ولكن المجلس رفض إقراره لأنه لم يسبق له مناقشة الموضوع وإقراره. ولكن رغم رفض السناتو أصر الإمبراطور على وجهة نظره وهدّد بإلحاق الأذى (أو بالإعدام فى رواية يوسيبيوس) بمن يتهم المسيحيين.

هل يعنى ذلك أن الإمبراطور تيبريوس وواليه على يهودا كانا مؤمنين بألوهية المسيح أو متحمسين للمسيحين أو على أقل الفروض متعاطفين مع

المسيحية، ضد اليهود فى فلسطين وأعضاء السناتو فى روما؟ لا نستطيع الإجابة بموضوعية عن هذا السؤال لأنه ليس هناك مصدر محايد أو غير مسيحى أو قريب من زمن الأحداث يعطينا معلومات عن أحداث تلك الفترة. وحتى إن صح ما رواه ترتليان من أن الإمبراطور أصرّ على رأيه فى شأن المسيح وألوهيته [9] رفض السناتو لتقريره وتهديد الإمبراطور بإلحاق الأذى (أو إعدام) متهمى المسيحيين فربما كان تفسير ذلك اعتراف الإمبراطور بالمسيح كأحد الآلهة فى الدولة الرومانية وليس كإله أوحد، وأن إصراره على ذلك وتهديده بإلحاق الأذى (أو إعدام) من يتهم المسيحيين كان رد فعل غاضب وعنيد لرفض السناتو لتقريره الذى أحاله إليه (لاسيما إذا علمنا أن العلاقة بين تيبريوس والسناتو كانت تتسم بالتحفظ والفتور مما اضطر الإمبراطور لأن يحكم من جزيرة كابرى لفترة من حكمه).

ومن القرائن التاريخية التالية حول المسيحية نجد المؤرخ سويتونيوس يذكر أن الإمبراطور كلوديوس (٤١-٥٤م) قد طرد من روما اليهود الذين كانوا يثيرون القلاقل بتحريض من المسيح.[١٠] ومن الواضح أن المقصود بهؤلاء هم المسيحيين حيث يبدو أن المسيحيين لم يكونوا معروفين ومميزين آنذاك كأتباع دين مستقل وكان يُعتقد أنهم طائفة من اليهود. هذه الإشارة إلى المسيحيين تدل على أن أتباع المسيحية قد انتشروا مبكراً فى روما بدرجة استفزت الإمبراطور وجعلته يطردهم من روما كما يشير سويتونيوس. وهناك فقرة فى يوسيبيوس تدل على مدى انتشار المسيحية بعد تيبريوس «فى كل مدينة وقرية نشأت كنائس مزدحمة بالآلاف من الناس مثل جرن حصاد يعج بالناس»[١١].

هذا الخلط بين المسيحيين واليهود من جانب الإدارة الرومانية جعل الإدارة الرومانية تغض الطرف عنهم مما ساعد على انتشارهم فى هدوء بعيداً

عن أعين الحكومة الرومانية بالصورة التى يصفها يوسيبيوس. وكان أول اضطهاد لحق بالمسيحيين هو اضطهاد الإمبراطور نيرون (٥٤-٦٨م) لهم والذى وقع على الكنيسة وقع الصاعقة والذى يبدو أنه استمر لسنوات عديدة ولم يقتصر على روما فقط[١٢] وكل ما يعرفه سويتونيوس عن هذا الإضطهاد هو أنه تعذيب ألحق بالمسيحيين وهى خرافة جديدة شريرة ومؤذية (يقصد بهذه الخرافة الديانة المسيحية). أما المؤرخ الذى ذكر بعض التفاصيل عن هذا الاضطهاد فهو تاكيتوس فى حولياته عن الإمبراطور نيرون حيث يؤرخ بداية الاضطهاد بعام ٦٤م ويربط بين الاضطهاد وبين حريق روما الكبير. ففى عام ٦٤م دمّر حريق هائل جزءاً كبيراً من روما وحامت الشكوك حول الإمبراطور نيرون بأنه هو الذى أضرم النيران فى المدينة وذلك لسمعته الرديئة الفظيعة كقاتل لأخيه غير الشقيق وأمه وزوجته ويقولون أنه ارتدى ملابس عازف قيثارة وغنى أغنية «تدمير طروادة» على أطلال روما المحترقة[١٣]. وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ تاكيتوس ما يلى فى حريق روما واضطهاد المسيحيين:

«لن يفلح أى جهد بشرى أو أى كرم من جانب الإمبراطور أو غفران وتكفير من جانب الآلهة فى أن يخلص نيرون من التهمة المشينة المنسوبة إليه وهى أنه أمر بحرق (روما). ولكى يخرس نيرون هذه الشائعات وجد كبش فداء يلصق به تلك الجريرة وعاقبهم بأشد أنواع العذاب (التعذيب). وهؤلاء من يطلق عليهم العامة مسحيين والذين كانوا مكروهين بسبب فظائعهم (أعمالهم المقززة). أما من يحمل أصل التسمية وهو المسيح فقد أعدم على يد الحاكم بيلاطوس البنطى فى عهد تيبريوس. وفى ذلك الحين (عهد نيرون) فإن هذه الخرافة الرهيبة كانت قد قُمِعَتْ ولكنها مالت إلى الاندلاع مرة أخرى ليس فقط فى يهودا ـ مصدر الأذى ـ ولكن فى روما التى يتدفق منها كل ما

هو وحشى ويلقى استجابة وترحيباً. وكان أول من أُلقى القبض عليهم هم الرجال الذين اعترفوا بالتهمة ثم قبض على أعداد هائلة بناءً على معلوماتهم ـ ليس بصدد تهمة إضرام الحريق تحديداً، وإنما بتهمة كراهية الجنس البشرى. وزاد التهكم والسخرية القاسية من وطأة الردى الذى أطبق عليهم. وكانوا يلفونهم فى جلود الحيوانات الضارية لكى يلقوا حتفهم تحت كلاب الصيد إرباً أو كانوا يدقون بالمسامير فى الصلبان أو يحترقون كالمشاعل لكى يضيئوا الليل عندما ينسحب ضوء النهار. وكان نيرون يقدم حدائقه لتقديم هذا المشهد كما كان يقدم عرضاً للسيرك ويختلط بالجموع المحتشدة فى لباس سائق عربة راكباً عربته. كل هذا ولَّد مشاعر التعاطف مع الضحايا رغم أنهم كانوا مذنبين ويستحقون أسوأ العقاب، فقد شعر الناس أنهم (الضحايا المسيحيين) قد أفنوا ليس فى سبيل المصلحة العامة وإنما لإشباع نهم القسوة لدى فرد واحد (نيرون)»[١٤].

ويعلق البعض على هذا الوصف من جانب تاكيتوس بأنه على الرغم من أن روايات تاكيتوس للأحداث غالباً ما تكون من الروايات التى يعتمد عليها بالمقارنة بالمصادر الأخرى، إلا أنه يميل للتضليل فى هذه الرواية ليس فى ذكر الحقائق وإنما فى تفسير هذه الحقائق: فمما لا شك فيه أن الحريق الكبير قد حدث وأن نيرون قد حامت حوله الشكوك فى ارتكاب الجرم وأن المسيحيين ـ بحديثهم عن قرب نهاية عصر بهذا الحريق ـ يبدون كبش فداء ملائم للغاية. ولكن هذا البعض يأخذ على تاكيتوس أنه أراد فقط أن يشوه صورة نيرون ويلطخها عن طريق إيجاد أكثر التفسيرات عدوانية عند تناول موضوع الاضطهاد حيث استخدم المسيحيين كعصا يضرب بها نيرون دون أن يكون فى نفسه تعاطف أو فهم حقيقى لهم. وربما كان ما حدا بتاكيتوس إلى اتخاذ

هذا الموقف أنه تقلد منصب الحاكم الرومانى فى آسيا فى العام التالى لإثارة بلينى الأصغر حاكم بيثنيا موضوع المسيحيين أمام الإمبراطور تراجان كما سنرى لاحقاً فى هذا البحث. لقد أدرك تاكيتوس أن بلينى اكتشف أن الاتهامات الفظيعة بالجرائم الموجهة ضد المسيحيين كانت اتهامات زائفة، رغم أنه لا يلوّن روايته عن نيرون بهذا الموقف المعاصر. ومع ذلك فإن تاكيتوس لا يعترف بالمسيحيين ولم يخطر له على بال أن يكونوا على صواب(١٥).

ويسجل المؤرخون المسيحيون أن نيرون كان أول إمبراطور يضطهد المسيحيين ويشنون هجوماً عليه ويذكرون فظائعه. فالمؤرخ ترتليان يذكر مخاطباً معارضى المسيحية من الرومان «ولسوف تجدون ـ إذا ما راجعتم تواريخكم ـ أن نيرون هو أول من استشاط غضباً بسيفه الإمبراطورى ضد هذه الطائفة (المسيحيين) عندما ارتفع شأنها فى روما. ولكننا نباهى ونفاخر بأن يكون مثل هذا الرجل قد كرس نفسه لإدانتنا ولعنتا لأن مَنْ يعرف ذلك الرجل يمكن أن يفهم أنه ما لم يكن الشىء طيباً عظيماً فلن يدينه نيرون»(١٦).

أما الأسقف يوسيبيوس فيهاجم نيرون ويقول إن الكثيرين قد سجلوا تاريخه بغاية الدقة ومن خلالهم يمكن إدراك مدى خرقه وجنونه الغريب مما جعله يقدم على قتل الآلاف ولم يفلت من قبضته حتى أقرب الأقربين إليه أو أعزّ الأصدقاء حتى أنه قتل أمه وأخوته وزوجته وآلاف غيرهم ممن لهم صلة بعائلتة كما لو كانوا أعداء ألداء(١٧). كما يذكر يوسيبيوس أنه يُروَى أن القديس بولس والقديس بطرس قد استشهدا فى روما أثناء اضطهاد نيرون : الأول بقطع رأسه والثانى بصلبه(١٨).

ولكن قبل الاستمرار فى تسجيل ومتابعة نماذج الاضطهاد الذى تعرض

له المسيحيون حتى نصل لعصر الاضطهاد الأكبر أو «عصر الشهدا» فى عهد دقلديانوس (خاصة منذ عام ٣٠٣م حتى ٣٠٥م) ينبغى أن نذكر الأسباب التى حدت بالحكومة الرومانية إلى اضطهاد وملاحقة أنصار الديانة الجديدة، وهو أمر جدلى لا يزال يدور حوله النقاش. فعلى الرغم من التسامح الذى اتسمت به الوثنية تجاه العقائد المختلفة إلا أن الأمر اختلف بالنسبة للمسيحية، فما هو الشيء الذى استثار روما فى المسيحية وجعلها تقلع عن نهج التسامح المألوف الذى اتبعته مع أنصار العقائد الأخرى ومنها اليهودية مثلا؟ يعتقد البعض من العلماء أن هذا الاضطهاد غير المألوف يعود إلى أسباب سياسية أو أخلاقية أو كليهما معاً حيث كانوا يفترضون أنها تهدد الأمن والنظام العام فى المجتمع الرومانى بحكم كونها أقلية خارجة على الإجماع ومارقة ولا تشارك فى عقائد الدولة. وكانت هناك حساسية فى الإمبراطورية تجاه المجتمعات الخاصة المغلقة وترى فيها بؤراً للإزعاج ولذا كانت تصر على أن تحصل على ترخيص أو تصريح من الدولة، ومن يستمر من هذه المجتمعات فى الاجتماع بدون ترخيص يعرض نفسه لأشد العقوبات. وكانت تهمة الخيانة العظمى Maiestas من بين التهم الموجهة للمسيحيين وقد كانت تهمة شائعة تحاك وتلصق بالآخرين فى عهد الإمبراطورية المبكرة. وكان يفترض أن المسيحية تنطوى على ممارسات لا أخلاقية متدنية ولا إنسانية مثل أكل لحوم البشر والزنا بالأقارب والقتل وأمور أخرى كريهة(١٩). ومن جراء هذه الفكرة التى ترسبت فى الأذهان حول المسيحية فى نفوس العامة فإنه إذا ما لحق الدولة أى إخطار أو كوارث يرجح معها أن الآلهة غاضبة ناقمة على الرومان كان ذلك يعد دافعاً يضاف لبقية دوافع اضطهاد المسيحيين، ويعبر ترتليان عن ذلك تعبيراً حياً نابضاً حين يقول:

«إذا ما فاض التيبر ووصل إلى الأسوار وإذا ما انخفض النيل ولم يصل للحقول وإذا ضنت السماء بأمطارها، وإذا ما زلزلت الأرض أو حدثت مجاعة أو حلّ وباء أو طاعون ارتفعت الصيحة على الفور «ألقوا بالمسيحيين للسباع» »[٢٠].

والآن لنعد مرة أخرى إلى موجات الاضطهاد الرومانى للمسيحية. سبق أن رأينا المؤرخ سويتونيوس يذكر أن الامبراطور كلوديوس طرد من روما اليهود الذين كانوا يثيرون الاضطرابات فى روما بإيعاز من المسيح، وما فى هذه العبارة من خلط بين المسيحيين واليهود والاعتقاد بأن المسيحيين طائفة من اليهود. ولا ندرى ما إذا كان نيرون فى اضطهاده للمسيحيين كان يدرك أنهم أتباع ديانة مستقلة أو باعتبارهم أتباع طائفة خارجة من طوائف اليهود فى روما. ولكن التمييز بين الديانتين اليهودية والمسيحية يبدو أنه كان واضحاً وملموساً فى عهد الإمبراطور فسبسيان كما يتضح فى فقرة من كتابات مؤرخ متأخر هو سوليكيوس سيفيرورس يتحدث فيها عن عقد تيتوس بن فسبسيان لمجلس حرب لكى يقرر ما إذا كان سيدمر المعبد اليهودى فى أورشليم أم لا.

يقول سيفيريوس :

«يقال أن تيتوس استدعى مجلسه الاستشارى ـ قبل أن يفعل أى شىء ـ وأخذ يتدبر فى الأمر وعما إذا كان سيدمر معبداً بمثل هذه الصنعة الرائعة. فقد كان يتراءى للبعض بأنه لا ينبغى تدمير معبد مقدس وعلى درجة من الروعة تفوق كل أعمال البشر : فإذا ما تم الحفاظ عليه سيكون ذلك برهاناً على اعتدال روما ورصانتها أما إذا هُدِمَ وخُرِّب فسيكون وصمة أبدية على قسوتها. وكان هناك آخرون من بينهم تيتوس نفسه يعارضون ذلك ويعتقدون

أن تدمير المعبد كان على درجة قصوى من الأهمية من أجل القضاء كُلية على ديانة اليهود والمسيحيين وكان رأيهم أن هذه الديانات رغم أنها كانت متعارضة مع بعضها إلا أنها بدأت من نفس المنابع أى أن المسيحيين قد خرجوا من عباءة اليهود وأنه بتدمير الجذر سوف يموت الساق (الجذع) بسهولة ويسر(٢١).

هذه الفقرة رغم أنها تظهر أن تيتوس ـ حسب زعم كاتبها ـ كان يدرك أن اليهودية والمسيحية ديانتان مختلفتان بل ومتعارضتان إلا أنه كان يصنِّف المسيحية على أنها ـ بصورة أو بأخرى ـ طائفة من اليهود خارجة عن الديانة الأم أو بمعنى آخر إحدى الهرطقات اليهودية. وهكذا ظنّ تيتوس أن القضاء على الجذر وهو اليهودية بتدمير معبد أورشليم سوف ينجم عنه تلقائياً ذبول وموت الجذع المنبثق عنه ألا وهو المسيحية وبذلك يكون قد ضرب عصفورين بحجر واحد.

وبعد هذه الضربة التى تلقاها اليهود فى أوشليم على يد تيتوس عام ٧٠م. وتدمير معبدهم تغير وضع اليهود نحو الأسوأ بصورة جادة وتحولت الضريبة التى كان يساهم بها اليهود فى صيانة معبدهم فى أورشليم إلى ضريبة تدفع من أجل معبد جوبيتر فى الكابيتول فى روما وخُصِّص صندوق خاص بهذا الغرض Fiscus Judaicus كانت أمواله تجبى بصورة قاسية وشديدة. ومن المرجح أنه على إثر هذا التشديد والقسوة مع اليهود لجباية الضريبة المذكورة بدأ الفرق يتضح بين اليهود والمسيحيين فى فلسطين وغيرها : فعند استجواب الشخص لمعرفة ما إذا كان يهودياً وبالتالى عرضة لدفع هذه الضريبة كان يوجه إليه السؤال إن كان قد خُتِنَ أم لا فإذا أنكر شخص مختون (وكان الختان من تقاليد اليهود) أن يكون يهودياً، فماذا عساه أن يكون ؟ إنه مسيحى. وهل

للمسيحيين ميثاق خاص مثلما لليهود؟ وهل لهم الحق فى أن يعيشوا كمسيحيين ؟ لا. وبهذه الطريقة تكرر وتدعم الحكم والموقف الذى اتخذه نيرون فى الأصل من المسيحيين[٢٢].

أما فى حكم الإمبراطور دوميتيان (٨١ – ٩٦م) فقد استمر فى اضطهاد اليهود جرياً على عادة أخية تيتوس فكان يجبى الضريبة على اليهود Fiscus Judaicus التى أسلفنا الحديث عنها بغاية الشدة والصرامة وأدين كثير ممن يمارسون طقوس اليهودية بعدم التدين والإلحاد بمعنى أنهم كانوا يرفضون المشاركة فى تقديم الأضحيات والقرابين للإمبراطور. وقد لمس العامة هذه الإجراءآت العقابية ولفتت أنظارهم بوضوح لأنه كان من ضحاياها شخصيتان بارزتان فى المجتمع الرومانى هما القنصل فلافيوس كليمنس الذى أعدم فى نفس عام قنصليته سنة ٩٥م فى أواخر عهد دوميتيان وزوجته فلافيا دوميتيلا قريبة الإمبراطور التى نفيت وذلك لأنهما كانا متعاطفين مع اليهودية أكثر من كونهما يهوداً بالمعنى الحرفى للكلمة كما يرى البعض[٢٣]، أو لأنهما كانا مسيحيين كما يستنتج البعض الآخر[٢٤] من التهم الموجهة إليهما من «إلحاد» و«قعود الهمة الذى يتسم بالاحتقار الشديد Contem[tissimae inertiae (كما ذكر عند سويتونيوس Domitian 15.1) ولكن هنا يبقى التساؤل : هل موجة الاضطهاد التى قام بها دوميتيان كانت ضد اليهود أساساً استمراراً لما فعله أخوه تيتوس وعلى نفس النهج الذى رأيناه من أن اجتثاث جذور اليهودية سيؤدى حتماً إلى ذبول واندثار الجذع الذى تفرع عنها وهو المسيحية ؟ أم كان اضطهاده موجهاً ضد المسيحية أساساً وأنه ـ كما يذكر يوسيبوس ـ «برز كخليفة لنيرون فى حملة العداء للربَّ وكان ثانى من يحرك الاضطهاد ضدنا (أى ضد المسيحيين)[٢٥] ؟ .

الأرجح أن وجهة النظر الأولى أكثر إقناعاً حيث من الواضح أن دوميتيان تأثر بفكر تيتوس ورأى أن الأصل والفرع (اليهودية والمسيحية) على نفس القدر من الخطورة من حيث عدم مشاركتهما فى طقوس العبادات الرومانية وخصوصاً عبادة الإمبراطور. والتهم التى كانت توجه لمن يمارس ضده الاضطهاد من إلحاد وعدم تدين والتوانى (عن ممارسة طقوس الديانة المألوفة) الممزوج بالاحتقار الشديد (لهذه الطقوس) هى تهم تصدق فى الواقع على كل من اليهود والمسيحيين الذين يبدو أنهم وضعوا فى خندق واحد فى اضطهاد دوميتيان. ولذلك لا يظهر بوضوح ما إذا كان القنصل الذى أعدم فلافيوس كليمنس وزوجته فلافيا دوميتيلا التى نفيت كانا من أنصار الديانة اليهودية أم من معتنقى الديانة المسيحية الجديدة.

هذا عن أهم الأحداث المرتبطة بالمسيحية خلال القرن الأول الميلادى كما تظهر فى المصادر التاريخية بالنسبة لروما عاصمة الإمبراطورية. أما عن المسيحية فى مصر فى خلال ذلك القرن فلا تكاد تصلنا معلومات ذات قيمة من المصادر التاريخية على الرغم من قرب مصر الجغرافى من فلسطين وعلى الرغم من هروب العائلة المقدسة من فلسطين إلى مصر خوفاً من بطش الملك هيرود الذى أخبرته نبوءة بمولد المسيح فى بيت لحم فأمر بقتل كل الأطفال الذين ولدوا هناك قبل عامين(٢٦). ومع ذلك فهناك إشارات ضمنية فى بعض المصادر وبعض المعلومات غير المؤكدة من مصادر متأخرة لم ترد فى المصادر المبكرة التى كتبها علماء اللاهوت المسيحى بالإسكندرية، فمثلا أورد يوسيبيوس أسقف قيصرية من القرن الرابع الميلادى أن القديس مرقص كان أول من أقام كنيسة الإسكندرية فى مصر وصارت هذه الرواية من بعده تقليداً سار عليه كل من كتب عن المسيحية من بعده. ولكن صيغة هذه الرواية كما

وردت عند يوسيبيوس ضعيفة إذ يقول «يقولون أن مرقص هذا كان أول من أرسل إلى مصر ليبشر بالإنجيل الذى شارك فى نفسه فى كتاباته وكان أول من أقام كنائس فى الإسكندرية ذاتها»(٢٧) ولم يذكر يوسيبيوس مصدره فى هذه المعلومة رغم أنه اعتاد فى أجزاء كثيرة من مؤلفه «التاريخ الكنسى» أن يحدد مصادره بل ويقتبس منها فقرات كاملة، ولكنه فى هذه الحالة اكتفى بضمير الغائب فى «يقولون φασί» وتركه دون تحديد، بالإضافة إلى ذلك فإن علماء اللاهوت المسيحى من الإسكندرية ذاتها من أواخر القرن الثانى حتى منتصف القرن الثالث الميلادى سانت كليمنت وأوريجين لم يوردوا هذه المعلومة عن القديس مرقص مما يزيد من غموضها(٢٨).

ومن الوثائق البردية المشهورة فى مصر فى القرن الأول الميلادى خطاب الإمبراطور كلوديوس إلى الإسكندريين بمناسبة النزاعات الحامية بين الإسكندريين واليهود فى المدينة فى تلك الفترة، ويذكر فى إحدى فقرات هذا الخطاب موجهاً كلامه لليهود «وألا يستقدموا أو يدعوا يهوداً ممن يبحرون جنوباً من سوريا إلى مصر وبذلك يضطروننى إلى أن أنظر للموضوع بقدر كبير من الريبة، وإلا فإننى سأنتقم منهم بكل السبل لأنهم ينشرون وباءاً عاماً فى العالم بأسره»(٢٩) وقد فسر بعض العلماء هذه الفقرة على أنها إشارة للرسل المسيحيين الذين كانوا يأتون إلى مصر من أنطاكية فيتسببون فى قلاقل واضطرابات فى الجالية اليهودية فى الإسكندرية كما يتضح من كلمة «وباء» νόσος التى استخدمها الإمبراطور(٣٠). ولكن رغم ضآلة المعلومات عن المسيحية فى مصر فى هذه الفترة مما لا شك فيه أن الإنجيل لابد أن يكون قد وصل إلى الإسكندرية قبل أواخر القرن الأول الميلادى حيث كانت الإسكندرية أعظم ميناء فى شرق البحر المتوسط وكانت مدينة عالمية يبحر إليها الناس من كل

حدب وصوب ولا سيما من سوريا وآسيا الصغرى واليونان. ويتضح من خطاب كلوديوس وغيره من الوثائق البردية أن اليهود السوريين (سوريا هنا تشمل سوريا الكبرى التى تضم كذلك الساحل الفينيقى وفلسطين) كانوا يتدفقون على مصر وأن يهود الإسكندرية كانوا يذهبون فى أحيان كثيرة إلى أورشليم. ولابد أنه كان هناك مسيحيون بين هؤلاء وأنهم سعوا إلى نشر الإنجيل بالإسكندرية[٣١].

نعود الآن مرة أخرى للحديث عن وضع المسيحية فى العالم الرومانى فى القرن الثانى الميلادى كما تظهر فى المصادر التاريخية. وأول ما يتبادر للذهن فى هذا الصدد خطاب معروف من الكاتب بلينى الأصغر (٦١ - ١١٤م) صاحب مجموعة من الرسائل الأدبية جمعت فى عشرة كتب، وهذا الخطاب موضوع دراستنا موجه من بلينى الأصغر إلى الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م) عن المسيحية وانتشارها فى بيثينيا فى آسيا الصغرى. ففى عام ١١٠م. استبد القلق الشديد بتراجان بشأن الأوضاع المالية لمدن بيثنيا فبعث بصديقه بلينى الأصغر فى مهمة خاصة ليكون حاكماً على بيثنيا. وكان بلينى محامياً ورجلا مثقفاً ومتفتحاً وذا شخصية لطيفة، ولما تولى حكم بيثنيا وجد فى انتظاره بعض الصعوبات الخطيرة فى حكم بيثنيا وكان يستشير الإمبراطور تراجان بشأنها، وكان من بين هذه الموضوعات التي استشار فيها الإمبراطور قضية المسيحيين. فلنرى ماذا ذكر بليني للإمبراطور فى هذا الشأن وكيف رد الأخير عليه:

«إن من مبدأى يا سيدى أن أحيل إليك كل النقاط التى يساورنى الشك بشأنها ومَنْ أفضل منك يمكن أن يرشدنى إذا ترددت أو يعيننى على جهالتى؟ لم يسبق لى مطلقاً أن حضرت محاكمات المسيحيين ولذلك فلا أعلم ما هو

العقاب والاستجواب فى العادة وما المدى الذى يمكن أن ينساق إليه. وعلى ذلك فقد خامرنى قدر كبير من عدم الثقة فى نقاط عديدة : هل ينبغى أن يكون هناك تمييز لى أساس السن أم يعامل الشباب الصغار بطريقة لا تختلف عن معاملة مَنْ هم فى سن الرشد والنضج؟ هل يُصفح عن التائبين النادمين أم أن الشخص الذى اعتنق المسيحية فى وقت من الأوقات لن يفيده شيئاً إن هو أقلع عنها؟ هل يعاقب الشخص إن هو أقر باسمه (المقصود اعترف بكونه مسيحياً) وإن كان لم يرتكب جرائم خطيرة أم يتم العقاب عن الجرائم التى تقترن بالاسم؟ وفى انتظار نصيحتك فإننى قد اتبعت الآتى مع أولئك الذين مثلوا أمامى كمسيحيين : سألتهم شخصياً إن كانوا مسيحيين، فإذا ما اعترفوا وأقروا بذلك كنت أكرر سؤالى مرتين وثلاثة فإن أصروا على اعترافهم كنت آمُر بإعدامهم. ولم يكن يساورنى أدنى شك فى أنه أياً كانت طبيعة هذا الاعتراف فإن إصرارهم وعنادهم الجامح كان يستحق أقصى عقوبة. كما كان هناك آخرون ممن ابتلوا بهذا البلاء، ولكن نظراً لكونهم مواطنين رومان كنت أضيف إلى حالتهم ملحوظة تفيد بضرورة إرسالهم إلى روما. وبعد ذلك فعند عقد محاكمات لأمثال هذه القضايا وتوزع الاتهامات كنت أواجه أنماطاً عديدة من السلوك : فكانت تعلق على الملأ وثيقة غير ممهورة باسم وكانت تضم العديد من الأسماء، فكنت أرى أن من الملائم إطلاق سَراح مَنْ يصرحون منهم بأنهم لم يكونوا ولم يسبق لهم مطلقاً أن كانوا مسيحيين وذلك بعد أن يتضرعوا للآلهة ـ وفقاً لما أتلوه عليهم ـ ويصلوا بالنبيذ والخمور أمام تمثالكم الذى أمرت بإحضاره مع التماثيل المقدسة، وبعد أن يكونوا فوق هذا كله ـ قد لعنوا المسيح ـ وهى كلها أفعال يقال أنه من غير الممكن إجبار مَنْ يؤمنون بالمسيح حقيقة على الإتيان بها. وهناك آخرون من بين مَنْ سماهم

المُبلّغ فى وثيقته كانوا يصرحون فى بادئ الأمر أنهم كانوا مسيحيين ولكنهم أنكروا ذلك لاحقاً أى أنهم كانوا مسيحيين فى وقت من الأوقات ولكنهم أقلعوا عن ذلك منذ سنوات عديدة مضت، وهؤلاء قلة لا تتجاوز خمسة وعشرين شخصاً. وهؤلاء جميعاً تعبدوا لتمثالك وتماثيل الآلهة ولعنوا المسيح. لكنهم ظلوا يؤكدون لى أن كل ذنبهم وجريرتهم هو أنهم كانوا قد اعتادوا على أن يجتمعوا فى يوم محدد قبل الفجر وأن يغنوا أنشودة للمسيح كإله وأن يأخذوا على أنفسهم عهداً مشفوعاً بقسم على ألا يقترفوا جريمة أو سرقة أو لصوصية أو زنا وألا ينكصوا عن إيمانهم وألا ينكروا وديعة أؤتمنوا عليها عند طلبها، وبعد ذلك كانوا يتفرقون ثم يلتقون مرة أخرى لتناول طعام وهو طعام عادى وبرىء تماماً. وقد كفوا وأقلعوا حتى عن فعل ذلك بعد أن أصدرت مرسومى الذى حظرت فيه التجمعات حسب تعليماتكم. كل ذلك جعلنى أشعر بأنه من الضرورى أن أتثبت من الحقيقة من فتاتين من الخدم كانوا يطلقون عليهما شمامسة ـ واستخدمت فى ذلك التعذيب، وكان كل ما استطعت التوصل إليه هو خرافات شريرة ومتطرفة، لذلك فقد أجلت المحاكمة ولجأت إلى طلب النصح منك. والسبب الأساسى الذى جعلنى أعتقد أنه من الملائم أن أستشيرك هو عدد الأفراد الذين يتهددهم الخطر: فهناك الكثيرون من كافة الأعمار والمستويات من كلا الجنسين يدخلون فى دائرة الخطر وسوف يدخل غيرهم. إن آفة هذه الخرافة لم تقتصر على مدن وقرى وإنما امتدت حتى إلى الريف، ولكن فى تقديرى فإنه بالإمكان السيطرة عليها وعلاجها. ولدى إحصاءات مؤكدة تظهر بالفعل أن المعابد التى طالما ظلت مهجورة بدأت تغص بروادها من جديد، وأن المواكب والاحتفالات الدينية التى تقطعت طويلا عادت من جديد، وأنه أصبح هناك مرة أخرى سوق للحوم الأضحيات التى لم

يكن يعثر على مشترى لها إلا بالكاد حتى وقت قريب. كل ذلك يجعلنى أدرك كم من الناس يمكن إصلاح شأنهم إذا ما أفسح المجال للتوبة والندم»[٣٢].

ورد الإمبراطور تراجان عليه قائلا:

«عزيز سيكوندوس : لقد انتهجت الطريق الصحيح والسلوك القويم فى بحثك وتقصيك فى الحالات التى مثلت أمامك كمسيحيين، فى الحقيقة ليس من الممكن إصدار قواعد عامة يمكن أن تكون أشبه بصيغة محددة وقاطعة : إذ لا ينبغى تعقبهم، ولكن إذا اتهموا وثبتت إدانتهم فلابد من عقابهم بشرط وحيد وهو أنهم إذا أنكر شخص ما أنه مسيحى وأثبت ذلك بالفعل أى بالصلاة لآلهتنا فلابد من الصفح عنه من خلال توبته أياً كانت درجة الشك فى ماضيه. ولا يجب إبراز وثائق غير ممهورة بتوقيع فى أى تهمة، إن ذلك سيكون سابقة مرذولة لا أسمح بها فى عصرى» [٣٣].

وخطاب بلينى طريف وغنى بالمعلومات ويرصد ظواهر هامة فى تطور انتشار المسيحية : إذ يذكر بلينى للإمبراطور أنه «لم يسبق له حضور محاكمات المسيحيين» هذه العبارة توحى بأن محاكمات المسيحيين كانت أمراً مألوفاً فى تلك الفترة من حكم تراجان مما يوحى بأن الظاهرة استفحلت وانتشرت وأصبحت تهدد الديانة الوثنية الرسمية بصورة جادة لا يمكن معها غض الطرف عنها، والأكثر والأهم من ذلك أن المسيحية فى هذا الخطاب من أوائل القرن الثانى أصبحت واضحة تماماً كديانة مستقلة ولا لبس أو غموض بينها وبين اليهودية كما كان الأمر من قبل وأصبح الاضطهاد مركزاً عليها والمحاكمات تعقد لأتباعها. كما يتضح من الخطاب أن أشخاصاً من كافة الأعمار

والطبقات ومن الجنسين قد اعتنقوا الديانة الجديدة، بل وأشخاص من المواطنين الرومان فى بيثنيا وليس فقط من أهل الولاية دخلوا فى المسيحية. ومن النقاط التى يثيرها الخطاب أيضاً كثرة أعداد من اعتنقوا الديانة الجديدة وانتشارهم فى المدن وقرى الريف وإصرارهم على ألا ينكروا دينهم حتى تحت ظروف الضغط والإرهاب من الإدارة الرومانية وكان هذا الإصرار والعناد من جانبهم يثير حنق رجال الحكم الرومانى ـ حتى المستنيرين منهم والمتفتحين من أمثال بلينى وتراجان ـ ويجعلهم ويحكمون عليهم بالإعدام، ورغم ذلك كانت هناك «قلة» ممن اعتنقوا المسيحية ترضخ أمام هذا الاضطهاد وتتراجع ـ حتى ولو كان تراجعاً ظاهرياً بغرض التقية ـ وتمارس ما يطلب منها من طقوس وثنية وتسب المسيح أمام رجال الإدارة. ويبدو أن هذا الاضطهاد للمسيحية كان فرصة لتصفية بعض الحسابات والثأرات الشخصية بين بعض الأفراد فظهرت وثائق غير ممهورة بتوقيع ـ أى من مجهولين ـ تتهم البعض باعتناق المسيحية حتى يتعرض لمسائلة الإدارة واضطهادها، وهو الأمر الذى استنكره الإمبراطور فى رده على بلينى ولم يسمح بهذه البلاغات المجهولة والتى أسماها «سابقة مرذولة» فى عصره، ولكن بلينى فى نقله لما دار بينه وبين بعض من سبق لهم اعتناق المسيحية وأثناهم بلينى عنه يروّج ـ دون أن يدرى ـ للمسيحية إذ لم يرتكب هؤلاء من ذنب أو جريرة سوى أنهم أقسموا على أن يلتزموا بالفضائل ـ إن كانت الفضيلة ذنباً أو جريرة ـ فهم يتعهدون بألا يقترفوا جريمة من قتل أو سرقة أو زنا وأن يحفظوا عهدهم ولا يحنثوا بأيمانهم، وفى محاولة من بلينى لإظهار مدى جهده الناجح فى تطويق ظاهرة المدّ المسيحى والتهوين من شأنه نجده يعترف بمدى تأثير انتشار المسيحية على الطقوس الوثنية وعبادتها فى بيثنيا حين يقول بأن المعابد (الوثنية) قد ظلت مهجورة فترة طويلة وأن الاحتفالات

(الوثنية) كانت متقطعة وأن لحوم الأضحيات لم تكن تجد من يشتريها، كل هذا يعنى أن المسيحية صارت منافساً قوياً للعبادات الوثنية، وإذا كان بلينى يذكر أن هذه الظواهر قد ضعفت ـ بعد إجراءاته فى مقاومة المسيحية ـ إلا أن هذا الإضعاف للمسيحية وإحياء الوثنية كان أمراً مؤقتاً وربما كان سطحياً وظاهرياً فقط كنتيجة لحملة المواجهة أمام المسيحية، ورغم هذا كله فإن رد الإمبراطور على بلينى يحمل فى طياته بوادر المهادنة والتسامح وغض الطرف عن انتشار المسيحية : فهو لا يسمح بتعقب المسيحية ولا يقبل البلاغات المجهولة ويغض الطرف عن ماض الشخص حتى وإن سبق اعتناقه للمسيحية طالما أنكر هذه التهمة وصلى للآلهة الوثنية (حتى ولو كان ذلك ظاهرياً فقط)، وهو فى ذلك يؤمِّن على اقتراح بلينى فى نهاية خطابه إليه.

وقد ظل هذا المبدأ الذى أرساه تراجان فى التعامل مع المسيحيين سارياً لفترة طويلة حتى حوالى منتصف القرن الثالث الميلادى وهو ألا تسعى الحكومة الرومانية إلى إثارة وإشعال نار الاضطهاد، مع اعتبار اعتناق المسيحية خروجاً على القانون. ومع ذلك كان الاضطهاد يحدث خلال هذه الفترة بشكل متقطع وبصورة عارضة إلى حد ما وكان يعتمد فى حدوثه على أهواء العامة والغوغاء أو رغبة حكام الولايات فى نيل الحظوة لدى الأباطرة والتقرب إليهم من خلال إعمال الاضطهاد ضد المسيحيين، ولكن أحداث الاضطهاد كانت عارضة كما ذكرنا لأن أباطرة القرن الثانى كانوا فى معظمهم رجالا ذوى شخصية سامية ولديهم حس قوى بالمسئولية الإمبراطورية.

وتأكيداً لهذا النهج والمسئولية نجد مثلا أن الإمبراطور هادريان (١١٧ - ١٣٨م) يحذو حذو سلفه تراجان فى التعامل مع المسيحيين حين يسأله حاكمه على ولاية آسيا سيرنييوس جارانيانوس فى أوائل حكم هادريان عن

محاكمات المسيحيين ـ كما فعل بليني مع الإمبراطور تراجان من قبل ـ وحين رد هادريان كان ذلك في عهد الحاكم التالي للولاية وهو مينوكيوس فوندانوس فخاطبه الإمبراطور هادريان قائلا:

«إلى مينوكيوس فوندانوس، تلقيت خطاباً كتبه لي سيرينيوس جرانيا نوس وهو رجل فذ الذكاء خلفته أنت في المنصب، إنني أرى أن الأمر لا ينبغي أن يظل بغير تحقيق حتى لا تثير قلق وانزعاج الناس وحتى لا نزود الوشاة والمبلغين بمادة لأنشطتهم الحاقدة. وإذا كان سكان الولايات يركنون بوضوح على التماسهم ضد المسيحيين حتى يثيروا الأمر أمام محكمتك فتوجههم إلى هذا (الإجراء القضائي) وليس إلى الطلبات والصيحات الغاضبة وحدها: فمن الأنسب إلى أبعد حد أن تفصل أنت في الاتهامات إذا ما رغب أي شخص في توجيه اتهام. وحينئذ إذا قام أي شخص بالفعل بتوجيه اتهام وأظهر أنهم يتصرفون تصرفات منافية للقانون فعليك أن تتخذ قرارك بدون ضجيج طبقاً لمدى فداحة (جسامة) الجرم. ولكن عليك ـ بحق الآلهة ـ إذا أثار أي شخص الأمر من أجل الابتزاز أن تتخذ القرار الملائم لهذا العمل القاسي وأن تستوثق من أنك تطبق الجزاء والقصاص العادل»(٣٤).

ومن القرائن التي تنسب كذلك للإمبراطور هادريان ويذكر فيها المسيحيون خطاب في سلسلة «تاريخ الأباطرة» ينسب إلى الإمبراطور هادريان موجه لشخص من أصدقائه ربما ـ يدعى سيفيروس ـ يبدو أن امتدح للإمبراطور كثيراً مصر وأبدى إعجابه بها ولكن الإمبراطور يختلف معه في الرأي ويبدي في هذا الخطاب انتقاداته للإسكندرية عاصمة مصر وأهلها ويذكر ما يلي:

«إن عبدة سرابيس هناك (فى الإسكندرية) من المسيحيين ومن يطلق عليهم أساقفة المسيحيين يعبدون سرابيس. وليس هناك مشرف واحد على صومعة يهودية كما لا يوجد سامرى واحد أو كاهن مسيحى لا يعمل منجماً أو مشعوذاً والناس فى غاية العناد ويتسمون بالغرور والاستعلاء. أما المدينة فهى غنية ثرية مرفهة: البعض فيها يعملون فى نفخ الزجاج والبعض يصنعون الورق وآخرون ينسجون ويغزلون الكتان، ولكل امرئ فيها حرفته التى يشتغل بها. وحتى المرضى منهم بداء النقرس والخصيان والعميان يزاولون حرفاً، وحتى العجزة المصابون بالشلل لا يعدمون عملا، إن لهم رباً واحداً اسمه المال وهو المعبود الذى يتعبد له فى الحقيقة الكل من مسيحيين ويهود ووثنيين على حد سواء» (٣٥).

ما يعنينا من هذا الخطاب ـ إن صحت نسبته للإمبراطور هادريان ـ هو فى حديثه عن المسيحيين، وهو حديث فيه قدر من الغرابة والدهشة حين يذكر أن المسيحيين يتعبدون للإله سرابيس (وهو الإله الذى أدخله بطلميوس الأول «سوتير» أول ملوك البطالمة فى مصر كمعبود رسمى للدولة البطلمية واستمرت عبادته حتى وقت متأخر من العصر الرومانى) واتهامهم بالتنجيم والشعوذة وحب المال والولع به. ورغم أن هذه الأمور التى يتحدث عنها الخطاب ـ باستثناء عبادة سرابيس ـ لم تكن قاصرة على المسيحيين وإنما شملت اليهود أيضاً، إلا أن الأمر مع أتباع الديانة الجديدة التى كانت تنتشر فى الخفاء وتتعرض لاضطهادات من حين لآخر كما رأينا يحتاج إلى وقفة ومحاولة للفهم، هل كان مسيحيو الإسكندرية يعبدون سرابيس فعلا وهل رأى هادريان ذلك عند زيارته لمصر فى السنة الخامسة عشرة من حكمه؟ وهل لو صحّ ذلك أن يكون قد علم بوجود مسيحيين وتساهل معهم أم أنهم أرادوا أن يضللوا

الإمبراطور عن هويتهم الحقيقية كمسيحيين فتعبدوا لإهل وثنى هو سرابيس؟ أم أن الأمر غير ذلك وأن حديث الإمبراطور عن المسيحيين فى خطابه مستقى من تقارير واردة إليه من موظفيه بالإسكندرية؟ وهل لو كان الأمر كذلك يكون ما فعله المسيحيون تضليلا للسلطات التى كانت تضعهم تحت المراقبة أو أن ذلك حقيقى وأنه نتيجة للديانات والفلسفات المتعددة الموجودة فى الإسكندرية واتصالها ببعضها البعض وتأثيرها على بعضها البعض مما جعل المسيحية تتأثر ببعض هذه العبادات كعبادة سرابيس مثلا كما يرى البعض(٣٦) ؟

عموماً فإن كل هذه الاحتمالات واردة وليس هناك شواهد أو قرائن ترجح أياً من هذا الاحتمالات.

على هذا المنوال تسير أحداث القرن الثانى الميلادى مع المسيحية بين هذا التسامح وعدم السعى إلى إثارة وإشعال نار الاضطهاد ضد المسيحية مع اضطهاد متقطع من حين لآخر كلما حدثت كوارث فى الإمبراطورية يعتقد العامة معها أن المسيحيين هم سبب البلاء، أى بعبارة أخرى أنه رغم التسامح النسبى مع المسيحيين فى القرن الثانى الميلادى إلا أن الأمر لم يكن ليخلو من بعض «حوادث» الاضطهاد من وقت لآخر. ولعل فى خطاب الفيلسوف جستين(٣٧) كان يعيش فى روما فى عصر أنطونينوس بيوس (١٣٨ - ١٦١) والذى كان مسيحياً ما يلقى الضوء على الكراهية التى كان المسيحية يتعرضون لها من طوائف الشعب رغم تسامح الحكومة وغضها الطرف عنهم إذ يخاطب الإمبراطور قائلا: «نيابة عن أولئك الناس من كافة الأجناس الذين يتعرضون بلا مبرر للكراهية واللعنات، وأنا جستين بن بريسكوس بن باخيوس من فلافيا التابعة لنابلس فى سوريا الفلسطينية واحد من هؤلاء (المسيحيين) أخاطبك

وأرفع لك أكف الضراعة والالتماس»[٣٨]. هذه هى مقدمة دفاع جستين عن المسيحيين إلى الإمبراطور أنطونينوس بيوس، وتعليقاً على هذه الفقرة من جستين يذكر يوسيبيوس أن نفس هذا الإمبراطور كان قد تلقى التماسات أخرى من أخوة (يقصد مسيحيين) من آسيا تعرضوا لكل أنواع الإهانة والأذى من جانب السكان المحليين مما جعل الإمبراطور يرسل مرسوماً إلى مجمع آسيا ـ وهو أحد مجالس الولايات التابعة للإمبراطور وكان يتألف من مندوبين عن المناطق والولايات المختلفة وكان من بين مسئولياته الأمور الدينية فى الولايات[٣٩] ـ وخلاصة هذا المرسوم حسبما أورده يوسيبيوس أنه وصلته تقارير كثيرة عن المسيحيين كما وصلت لأبيه هادريان من قبله ـ وأن رده عليها يتفق مع رأى أبيه الذى سبق أن أصدره فى مرسوم ـ ذكرناه من قبل ـ وفحواه «ألا يتدخل أحد فى شئونهم إلا فى حالة ثبوت تآمرهم ضد الحكومة الرومانية وأن من يصر بعد ذلك على أن يتخذ إجراءً ضد أي من هؤلاء الأشخاص على أساس أنه كذلك (مسيحي) فيُطلق سراح المتهم حتى لو ظهر أنه كذلك (أى أنه مسيحى) ويتعرض مَنْ وجَّهَ له الاتهام للعقاب[٤٠]» وقد نشر هذا المرسوم الإمبراطورى فى إيفسوس حيث عقد مجمع أو مجلس آسيا.

هذه الشواهد ـ إن صحت ـ تبرز أمرين : أولهما أن انتشار المسيحية كان نشيطاً فى آسيا وهو أمر سبق أن تأكد لنا من مصادر غير مسيحية مثل مراسلات بلينى الأصغر والإمبراطور تراجان، وأن القلق من الانتشار السريع للمسيحية كان يساور حكام هذه المناطق من الرومان مما جعلهم يرسلون بمخاوفهم هذه للأباطرة بعد تراجان وهم هادريان وأنطونينوس بيوس كما رأينا فى الفقرة السابقة، بل أن هذا القلق والضيق من انتشار المسيحية كان يستبد بعامة الناس من الوثنيين وهو ما ظهر فى صورة مضايقات وكراهية للمسيحيين تردد صداها

فى شكوى الأخيرين للإمبراطور من أنواع الإهانة والأذى التى يلقونها على أيدى مواطنيهم. الأمر الثانى وهو هذا التسامح وغضّ الطرف المطلق عن انتشار المسيحية من جانب الأباطرة طالما لم يفكر المسيحيون فى التآمر على الإمبراطورية. وما أورده يوسيبيوس على لسان أنطونينوس بيوس من تعرض من يضايفون المسيحيين للعقاب وتبرئة المسيحيين من الاتهام حتى لو ثبت فعلا أنهم مسيحييون يثبت أن التسامح مع المسيحيين قد خطا فى عهد أنطونينوس بيوس خطوة واسعة إلى الأمام حيث لم تعد المسيحية تهمة يعاقب عليها وإنما العقاب لمن يتآمر على الحكومة الرومانية، وهى فى الواقع تهمة يتعرض لها المسيحى وغير المسيحى على حدٍ سواء. إذن فخطاب أنطونينوس بيوس ـ إن صحت رواية يوسيبيوس له ـ يعد اعترافًا ضمنياً بالمسيحية يكاد يرقى إلى مرتبة الاعتراف الصريح بها كإحدى ديانات الدولة الرومانية.

رغم ذلك الجو من التسامح من الناحية الرسمية فإن القلق الذى استبد بالوثنيين من انتشار المسيحية فى عهد أنطونينوس بيوس أسفر عن اضطهاد وقتل المفكرين المسيحيين البارزين فى ذلك الحين حين ألقى القبض فى سميرنا (أزمير الحالية) على ساحل آسيا الصغرى على المعلم ورجل الدين المسيحى بوليكارب وتعرض لقدر كبير من الترغيب والترهيب والتعذيب على يد البروقنصل الرومانى الذى تولى مساءلته لكى يثنيه عن مسيحيته ولكنه تصدى بشجاعة فائقة لكل هذه المحاولات مما جعل الحاكم الرومانى يصدر قراره بإحراقه حياً رغم شيخوخته ووسط هتاف وصياح وتهليل الوثنيين واليهود فى سميرنا مصفقين لإعدامه لأن «هذا هو معلم (المسيحية) فى آسيا وأبو المسيحيين ومدمر آلهتنا وهو الذى يعلم الناس أن يمتنعوا عن تقديم الأضحيات والعبادة (للآلهة الوثنية)». كما أن يوسيبيوس يظهر فى هذه الفقرة عن

استشهاد بوليكارب[٤١] أن يهود سميرنا كانوا فى غاية الحماس لقتل بوليكارب كما هو دأب اليهود دوماً فى مثل هذه المواقف، مما يدل على استمرار كراهية اليهود للمسيحية والكيد لها كما كادوا وتآمروا على المسيح منذ البداية. كما تعرض الفيلسوف والمفكر المسيحى جستين الذى كان يعيش فى روما للاضطهاد والاستشهاد نتيجة مؤامرة فيلسوف معاصر له فى روما يدعى كريسكنس كان أقل شأناً فى علمه وحكمته من جستين وكان جستين قد هاجمه من قبل مما أوغر صدر كريسكينيس عليه وجعله يكيد له ويدبر مؤامرة انتهت باستشهاد جستين فى روما فى عهد أنطونينوس بيوس[٤٢].

ويبدو أن الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠م) وكذلك لوكيوس فيروس (١٦١ - ١٦٩) ابنى أنطونينوس بيوس بالتبنى قد احتذيا حذوه فى التعامل مع المسيحية والمسيحيين، وفى هذا الصدد يذكر ترتليان «إن ماركوس أوريليوس فى الواقع لم يسقط العقوبة عن المسيحيين صراحة ولكنه تخلص منها بطريقة أخرى ألا وهى إلحاق الإدانة بمن يتهمونهم بل وبطريقة أكثر قسوة[٤٣]، وهى نفس طريقة أبيه بالتبنى أنطونينوس بيوس كما رأينا. ويدين ترتليان فى بقية الفقرة القوانين التى كانت تطبق ضد المسيحيين ويصم من يقومون على تطبيقها بالإلحاد والظلم والفساد والقسوة والغرور والجنون ويعدد الأباطرة الذين أحجموا عن تطبيقها مثل تراجان الذى أحبط هذه القوانين وحظر تعقب المسيحيين، وهادريان رغم أنه كان يسعى بحثاً عن كل ما هو غريب، وفسبسيان رغم أنه شنّ حرباً على اليهود، وأنطونينوس بيوس وفيروس.

من كل ما سبق ندرك أن الإدارة الرومانية أو بمعنى أصح من كانوا يتبوأون مكان الصدارة منها وهم أباطرة الرومان لم يتخذوا موقفاً متشدداً من

المسيحية فى القرن الثانى بل غضوا الطرف عن أتباعها طالما لم يصدر عنهم ما يهدد الحكومة الرومانية، وكان لهذا الموقف الرسمى المتسامح أثره فى سرعة انتشار المسيحية فى أرجاء الإمبراطورية رغم ما كان يعترضها أحياناً من حوادث اضطهاد لأتباعها على أيدى الجماهير الوثنية المتعصبة التى كانت تخشى من هذا المد. ولكن الأمر الأهم أن محاولات مضايقة واضطهاد المسيحيين لم تصدر فقط عن العامة والدهماء وإنما كذلك عن مثقفين ورجال فكر من الوثنيين حاولوا التقليل من قيمة المسيحية كديانة ومذهب فكرى وبحثوا فيها عن الثغرات ونقاط الضعف حتى يسددوا إليها سهامهم محاولين الإجهاز عليها. وفى المقابل تولى مفكرون مسيحيون الرد على هذه المطاعن التى آثارها خصوم المسيحية. وسنكتفى فى هذا المقام بذكر أمثلة محددة من هذا الجدل الدائر على الجانبين لأنه جدل واسع لا يتسع له هذا البحث لأنه ـ فى كثير من نقاطه ـ جدل لاهوتى ليس هذا مجال الخوض فيه ولا يدّعى الباحث معرفةً به.

سبق أن ذكرنا فى مجال الحديث عن أسباب الاضطهاد للمسيحية (ص١٢) من جانب الرومان أنه كان من بين هذه الأسباب تهم تتعلق بممارسات أخلاقية متدنية تجافى الأعراف السائدة فى ذلك الحين مثل أكل لحوم البشر والزنا بالأقارب والقتل. ويبدو أن الكتاب الوثنيين المناوئين للمسيحية روجوا لهذه الإتهامات بغية تنفير الناس من اعتناق المسيحية.

والكتابات التى لدينا فى مهاجمة المسيحية على أيدى الكتاب الوثنيين وردود الكتاب المسيحيين عليها تكثر فى القرن الثانى الميلادى ولاسيما فى النصف الأخير من ذلك القرن. وربما يكون تفسير ذلك أن هذا القرن اتسم بالتسامح والتساهل من جانب أباطرة الأسرة الأنطونينية (وخصوصاً من تراجان

حتى كومودوس أى من أوائل ذلك القرن كما رأينا فى مراسلات بلينى الأصغر مع الإمبراطور تراجان حتى نهاية عصر كومودوس سنة ١٩٢م). هذا التسامح ربما كان دافعاً للفريقين (الوثنيين والمسيحيين) للكتابة تأييداً ودعماً لمعتقدات كل منهما : فيبدو أن الوثنيين لم يرحبوا كثيراً بهذا التساهل إزاء المسيحية والمسيحيين من جانب الإدارة الإمبراطورية لأن التشدد ضد المسيحيين من قبل كان يعفى الوثنيين من الجماهير والمفكرين من عبء مواجهة المسيحية والتصدى لها، أما والوضع كذلك والتسامح ظاهر مع المسيحية فإنها استشرت وانتشرت فى أرجاء كثيرة وأصبحت تمثل خطراً حقيقياً ليس على الفكر الوثنى فحسب بل وعلى الوجود الوثنى ذاته ولم يعد هناك بد من أن يشهر المفكرون والكتاب الوثنيون أقلامهم طعناً فى المسيحية وذماً فى المسيحيين. وعلى الجانب الآخر فإن مفكرى المسيحية استفادوا من مناخ التسامح السائد فى القرن الثانى وكتبوا كتابات مضادة رداً على الوثنيين وتسفيهاً لمزاعمهم، بل وتجاوز الكتّاب المسيحيون مرحلة الدفاع وانتقلوا من خندق الدفاع إلى مرحلة الهجوم على الوثنية وتقويض أركانها.

وقبل أن ندخل فى هذه الهجمات المتبادلة بين الوثنيين والمسيحيين من الناحية الفكرية نذكر بايجاز رأى بعض مثقفى الرومان من أوائل القرن الثانى فى المسيحية، إذ ينظر إليها المؤرخ تاكيتوس والأديب والسياسى الرومانى بلينى الأصغر ـ وهما من أوائل من انتبهوا لظاهرة المسيحية كما سبق أن رأينا ـ نظرة ازدراء واستهجان باعتبارها «خرافة مهلكة exitiabilis superstitio» و «خرافة تافهة ومتطرفة parva et immodica supers» و«عناداً جامحاً inflexibilis ob-stinatio» بمعنى أن المسيحيين كانوا جماعة من المتعصبين للخرافات ممن استسلموا للحماس الزائد المتهور. ويصفهم تاكيتوس بأنهم كانوا يكرهون

البشرية وينعتهم كريسكنس، وهو فيلسوف كلبى من منتصف القرن الثانى الميلادى ـ بأنهم كفرة وملحدون ! ولكن كل هذه النعوت والأوصاف كانت تمثل انطباعات عارضة وشائعات تعكس نفور الرومان من كل ما هو جديد[٤٤] ولم يسبق تجربته دون أن توضح ـ إلا فى القليل النادر ـ نقاط الاعتراض على الديانة الجديدة.

أما بداية الهجوم على المسيحية فربما يبدأ مع الخطيب لوكيان الذى ولد فى ساموساطا (سيميساط فى سوريا) عام ١٢٠م. ويتمثل هذا الهجوم على المسيحية من جانب لوكيان عندما يروى قصة حقيقية عن أحد الفلاسفة الكلبيين فى عصره ويدعى بروپتوس وأطلق عليه لوكيان تسمية «الغريب» وأسمى قصته التى حكاها عن «موت الغريب» أو عن نهاية الغريب περὶ τῆς περεγρίνου τελευτῆς . وتتلخص قصة الغريب ـ كما يرويها لوكيان ـ فى أنه كان فيلسوفاً كلبياً ـ أو بالأحرى دجالا ـ يسعى بهمة وحماسة وبكل السبل وراء تحقيق الشهرة والذيوع وليس وراء الحقيقة. ويروى لوكيان كيف أن هذا الغريب كان فى مطلع شبابه داعراً وفاسقاً وأنه خنق أباه وتخلص منه لأنه لم يحتمل بقائه فوق سن الستين وحينما ذاع هذا الأمر حكم على نفسه بالنفى وظل هائماً على وجهه من بلد لآخر. وفى أثناء طوافه وتجواله حدث أن اعتنق المسيحية لبعض الوقت حين مرّ بفلسطين وأُلقى فى السجن لبعض الوقت ـ ومسألة اعتناقه للمسيحية هى أهم ما يعنينا فى هذا المقام ـ ثم أفرج عنه حاكم سوريا الذى كان مغرماً بالفلسفة. وحين عاد إلى موطنه فى بلدة باريوم (باريون باليونانية : وهى بلدة تقع على الدردنيل وأصبحت موقعاً لمستوطنة رومانية منذ عصر أغسطس (Lucian, peregrinus, 14, note 2) وجد أن موضوع قتله لأبيه لايزال ساخناً وأن الكثيرين لا يزالون يطالبون بمحاكمته، وكانت معظم

أملاكه قد صودرت أثناء غيابه ولم يتبق منها سوى مزارعه التى تبلغ قيمتها خمس عشرة تالنتا، فما كان من برويتوس (الغريب) إلا أنه تخلى عن أملاكه التى ورثها عن أبيه للدولة وأعلن ذلك أمام الجمعية العمومية فى باريوم فنال استحسان وإعجاب الناس هناك مما جعلهم يهتفون به على أنه الفيلسوف والوطنى الأوحد وجعلوا منه بطلا فى مدينته. ثم عاد للتجوال مرة أخرى وكان قد انتهك تقاليد المسيحية وأكل من الطعام ما حرم عليهم فلم يقبلوه فى دينهم مرة أخرى، فعاد وحاول استرداد ثروته التى تنازل عنها لمدينته من قبل فلم يفلح فى ذلك. ثم ذهب إلى مصر حيث تعلم الزهد والتقشف واللامبالاة وكان يمارس الدجل والشعوذة، ومنها ذهب إلى إيطاليا وأخذ يسب الجميع بمن فيهم وعلى رأسهم الإمبراطور أنطونينوس بيوس (١٣٨ - ١٦١) الذى عرف باعتداله ورقته فلم يأبه بشتائم هذا (الغريب) مما جعله يتمادى فى سبابه للإمبراطور مما دفع حاكم المدينة لطرده وقد زاد ذلك من شهرته بوصفه الفيلسوف الذى نفى بسبب صراحته وحريته الزائدة. ثم أخذ يذهب إلى أوليمبيا فى إقليم إيليس فى بلاد الإغريق لمشاهدة الاحتفالات والألعاب الأوليمبية التى كانت تعقد هناك كل ٤ سنوات وكان يسب ويلعن أهل إيليس وكان ينصح الإغريق بحمل السلاح ضد الرومان ولكنه لم يفلح هذه المرة فى جذب انتباه الناس والتمتع بالشهرة. ولكى يبقى فى دائرة الضوء ـ كما يروى لوكيان ـ لجأ إلى وسيلة أخرى وهى أن أعلن للجماهير المحتشدة فى الأوليمبياد أنه سيحرق نفسه الأوليمبياد القادم ونفذ ذلك بالفعل فى الأوليمبياد التالى. وكان لوكيان شاهداً على ذلك وكتب قصته بعد انتحاره محترقاً بصفته إنساناً غريب الأطوار تقلب بين مذاهب ومعتقدات عديدة(٤٥).

بعد هذا التعريف الموجز بقصة برويتوس أو «الغريب» كما يرويها لوكيان

نأتى الآن لنتعرف على كيفية استغلال لوكيان للغريب وقصته فى إبداء وجهة نظره فى المسيحية ومعتنقيها من خلال اعتناق هذا الشخص الغريب الأطوار للمسيحية فى إحدى مراحل حياته ولندع لوكيان يروى لنا هذه المرحلة من حياة الغريب وكيفية تعامل المسيحيين معه:

«وفى ذلك الحين تعلم معارف المسيحيين الغريبة من خلال اختلاطه بقساوستهم وكتبتهم فى فلسطين. ولكن ماذا فى ذلك؟ ففى فترة وجيزة جعلهم يبدون كالأطفال وأصبح هو بمفرده عرافًا وزعيماً دينياً وعلى رأس صومعة وكل شىء ! وكان يشرح ويفسر بعضاً من كتبهم بل وألَّفَ كثيراً منها وكانت نظرتهم إليه كما لو كان إلهاً واستفادوا منه كمشرع وأنزلوه منزلة حاميهم بعد ذلك الذى لا يزالون يعبدونه وهو الرجل الذى صلب فى فلسطين لأنه أدخل هذه العقيدة الجديدة وقدمها للعالم (يقصد المسيح طبعاً).

«وعند ذلك ألقى القبض على بروبتوس لهذا السبب وأودع السجن وهو الأمر الذى أضفى عليه ذيوعاً كبيراً ورصيداً يضاف لحياته المستقبلية وللدجل والنصب والسعى وراء الشهرة الذى أُغرم به. ولكن عندما سجن اعتبر المسيحيون الأمر كارثة، وبذلوا كل ما فى وسعهم من جهد من أجل الإفراج عنه. ولما كان الإفراج عنه أمراً مستحيلا فقد أبدوا نحوه كل سبل العناية والاهتمام بصورة دؤوبة متحمسة لم تفتر للحظة. ومنذ مطلع الشمس ترى العجائز من الأرامل والأطفال اليتامى ينتظرون إلى جوار السجن فى حين كان من يشغلون الوظائف من بينهم يبيتون معه داخل السجن بعد رشوتهم لحراس السجن، وكانت تُجلَب له الوجبات الفاخرة وكانت تتلى كتبهم المقدسة وكان هذا «الغريب» الرائع ـ إذ كان لا يزال ينادى بذلك الاسم ـ يطلق عليه من جانبهم «سقراط الجديد» بل لقد كان هناك أناس يأتون إليه من مدن آسيا

أرسلهم المسيحيون هناك على نفقتهم الخاصة من أجل مؤازرة الرجل والدفاع عنه ورفع معنوياته، وإنهم يبدون سرعة منقطعة النظير حينما يحدث أمر من هذه الأمور العامة والاضطهادات إذ سرعان ما يجودون بكل ما لديهم، وهكذا كان الموقف فى حالة الغريب إذ أتاه منهم مال كثير بسبب سجنه وكون منها دخلا لا بأس به، «لقد أقنع هؤلاء البائسون أنفسهم بأنهم سيخلدون ويعيشون إلى الأبد» (يقصد هنا المسيحيين بطبيعة الحال)

τὸ μὲν ὅλον ἀθάνατοι ἔσεσθαι καὶ βιώσεσθαι τὸν ἀεὶ χρόνον

ونتيجة لذلك فإنهم يحتقرون الموت بل وحتى يسلمون أنفسهم ليسجنوا طواعية فى معظمهم. والأكثر من ذلك فإن مشرعهم الأول (المسيح) أقنعهم بأنهم جميعاً أخوة لبعضهم البعض بعد أن نبذوا إلى الأبد آلهة الإغريق وبعد أن صاروا يعبدون ذلك السوفسطائى المصلوب ويعيشون فى ظل قوانينه. لذلك فإنهم يحتقرون كل شىء بلا تمييز ويعتبرون كل شىء مشاعاً، وقد تلقوا مثل هذه التعاليم بصورة تقليدية ودون أى دليل محدد دقيق. ولذلك فإذا أتى إليهم نصاب محترف وأمكنه أن يستغل هذه الأمور لاكتسب ثروة كبيرة على الفور باستغلال هؤلاء البسطاء والاحتيال عليهم.

«ولكن أُطلِقَ سراح الغريب على يد حاكم سوريا فى ذلك الحين وهو رجل مغرم بالفلسفة والحكمة وأدرك مدى تهور (الغريب) واستعداده للموت فى سبيل أن يترك وراءه شهرة وسمعة فى هذا الصدد، ولذلك أطلق سراحه واعتبره أنه لا يستحق حتى العقوبة العادية [٤٦]» (وهى الجلد).

من هنا نرى لوكيان يصور المسيحيين فى عصره على أنهم سذج بسطاء يستطيع شخص محتال أن يندس بين صفوفهم بل وأن يتبوأ مكانة كبيرة بينهم

كما فعل هذا الغريب الذى فسَّرَ بعض كتبهم وألَّفَ الكثير منها كما يزعم لوكيان. إن لوكيان بذلك يهاجم المسيحية ويلمح من طرف خفى إلى أن عقيدتهم لم تكن قوية أو على أسس راسخة وأنهم تلقوا تعاليمهم تلك دون أى برهان دقيق. ἄνευ τινὸς ἀκριβοῦς πίστεως τὰ τοιαῦτα παραδεξάμενοι -

وأن أى محتال محترف يستطيع أن يتكسب من وراءهم ويثرى بالاحتيال والنصب عليهم مستغلا حماسهم لديانتهم. وتعد هذه الرؤية من جانب لوكيان هجوماً على المسيحية من جانب آخر وهو التلميح بأن من كانوا يسجنون أو يعذبون أو حتى يقتلون من المسيحيين لم يكونوا يصدرون فى ذلك جميعاً عن عقيدة راسخة وإيمان وإنما كان البعض منهم يفعلون ذلك سعياً وراء غرض دنيوى من مال أو شهرة أو كليهما معاً.

ورغم محاولة لوكيان إظهار المسيحيين فى صورة السذج والبسطاء والمغفلين إلا أنه أظهر سرَّ قوة المسيحية وسرعة انتشارها رغم الضغوط، وطبعاً يكمن ذلك السر فى تماسكهمَ وتضامنهم الشديد وفى أخوَّتِهم التى علمهم إياها السيد المسيح. ولعلَّ خير شاهد على ذلك تلك الصورة التى يرسمها لوكيان والتى رأيناها أعلاه من وقفة المسيحيين الصلبة المتحمسة الدائمة مع واحد منهم (حسب تصورهم) أثناء فترة سجنه إذ كان الرجال يرشون حراس السجن لكى يمكنوهم من المبيت معه، وتنتظر الأرامل والأيتام بجوار السجن منذ مطلع الفجر لكى يروه ويمدوه بالوجبات الفاخرة بل ويأتى إليه فى سجنه فى فلسطين رجال أرسلهم المسيحيون من كافة المدن الأسيوية على نفقتهم لمساعدته والدفاع عنه والشد من أزره. لقد قصد لوكيان ذم المسيحيين فمدحهم دون أن يدرى لأن هذه الصورة تدعو للإعجاب من أى قارئ متجرد. ولكن لوكيان يشكك فى عقيدة الخلود عند المسيحيين ويسخر منها رغم أن

البعث والحياة الأخرى موجودة فى ديانات وثنية أقدم من المسيحية كما كان الحال فى مصر القديمة مثلا.

وإذا كان لوكيان قد هاجم المسيحية بصورة عارضة فى أثناء حديثه عن «الغريب» وكيف احتال على السذج والبسطاء المسيحيين كما صورهم لوكيان، فإن كاتباً آخر من أواخر القرن الثانى الميلادى يدعى كيلسوس (حوالى عام ١٨٥م) هاجم العقيدة المسيحية هجوماً ضارياً وألف فى ذلك عملا أسماه «عن العقيدة الصحيحة». وهذا الكتاب يكاد يكون قد وصلنا فى مجمله لأن المفكر المسيحى المعروف أوريجين من النصف الأول للقرن الثالث الميلادى ردَّ على هجوم كيلسوس فى مؤلف أسماه «ضد كيلسوس» وفيه أورد نقاط هجوم كيلسوس على المسيحية والرد عليها. وهذا الأمر لم يتوفر بالنسبة لأقوى خصوم المسيحية وربما أكثرهم علماً وهو بورفيرى من القرن الثالث الذى ألف خمسة عشر كتاباً ضد المسيحيين ولكنها أحرقت بأمر من الأباطرة ثيودوسيوس الثانى وفالنتنيان الثالث عام ٤٤٨م ووصلت إلينا فقط بعض الاقتباسات من أعماله فى كتابات آباء الكنيسة[٤٧].

ولم يكن كيلسوس فى هجومه على المسيحية من أنصار مذهب فلسفى بعينه وإنما كان فيلسوفاً انتقائياً يميل إلى مدارس فكرية عديدة كالأفلاطونية والرواقية كما كان دارساً للتاريخ والعادات الدينية عند أمم كثيرة. ولم يهاجم كيلسوس أخلاقيات المسيحيين كما فعل غيره كما سنرى وإنما هاجم معتقداتهم على أساس فلسفى وبذلك رفع مستوى النقاش على الجانب المسيحى من مجرد دفاع إلى جدل ومناظرة، وأخذ كيلسوس الهجوم على المسيحية مأخذ الجد[٤٨] وليس فى صورة اتهامات أخلاقية وانطباعات مسطحة.

وسنوجز فيما يلى صورة مختصرة للنقاط التى طرحها كيلسوس فى هجومه على المسيحية حيث بدأ هجومه بالدفاع عن قرار تحريم وحظر المسيحية فى الإمبراطورية على اعتبار أن المسيحية ـ من وجهة نظره ـ لا تقدم جديداً أو شيئاً مثيراً للإعجاب فيما تطرحه من تعاليم أخلاقية وأنها سطحية بالمقارنة بالفلسفات الأخرى. كما يذكر أن المسيحية ديانة غير أصيلة وأن المصدر المباشر المستقاة منه وهو اليهودية ما هو إلا واحد من بين الأفكار والمعتقدات القديمة ولا يمكن تعميمه أو جعله معياراً وذلك لكونه لا يطرح سوى منظور واحد ناقص ومبتور عن العالم وأصوله ونشأته. كما يذكر أن اليهودية تشارك الحضارات العظيمة الأخرى من مصرية وهندية وفارسية ويونانية ورومانية فى إدراكها للعقيدة الصحيحة القديمة، وهو بذلك يشير إلى أنه كانت هناك وحدة فى المعتقدات والتاريخ والتقاليد فى العالم القديم، هذه الوحدة انتهكها المسيحيون وخرجوا عليها. ورغم ذلك فإن كيلسوس لم يكن يحبذ اليهودية وكان يعتبرها ديانة منتحلة كما لم يكن يحبذ التوحيد الصارم عند موسى وكان يعتبره ساحراً، وكانت كراهيته الحقيقية تنصب على المسيحية لأنه كان يعتبر أنها ورثت عن اليهودية أسوأ ملامحها، ثم يوجه هجومه إلى السيد المسيح ويشكك فى نسبه ويسخر من اعتقاد المسيحيين فى ألوهيته وفى كونه ابن الرب ويزعم أنهم تعلم السحر فى مصر، وهى اتهامات رددها اليهود من قبله. ثم يناقش إنجيل متى والأناجيل أو الكتابات الغنوصية مناقشة منطقية ويبرز فيها ما يعتبره تناقضات وسخافات حول تأليه المسيح ونبؤات العهد القديم حول المسيح ويذكر أنها لا تنطبق بالضرورة على المسيح وحده وإنما على آلاف غيره، كما يثير غير ذلك الكثير من الجدل اللاهوتى محاولا إخضاعه لمنطقه هو. وهو يعتبر أن هذه التناقضات التى أثارها حاسمة ولا سبيل لمقاومتها، وكانت نظرته

للأناجيل باعتبارها أدب تبشيرى دعائى ولم ينظر إليها كسيرة مقدسة أو كوثائق قويمة ومعترف بها للكنيسة المسيحية. كما كان كيلسوس على بينة تامة بالانشقاقات الداخلية فى الكنيسة وذكر بأن المسيحيين فى أول عهدهم كانوا متحدين فى غرضهم ولكنهم منذ وقت قريب (من زمن كيلسوس) انقسموا شيعاً وأحزاباً حتى أنهم الآن (فى زمن كيلسوس) لم يعد يربطهم سوى أمر واحد وهو مسمى المسيحية. ويهاجم كيلسوس انتشار المسيحية بين الفقراء والعامة والبسطاء ويقول «إنهم هم أنفسهم (المسيحيين) يعترفون بأن الجهلاء وغير المتعلمين هم وحدهم الجديرون بإلههم (إله المسيحيين) وهم بذلك يظهرون أنهم ليس بوسعهم أن يقنعوا سوى الحمقى والشائنين والأغبياء والعبيد والنساء والأطفال الصغار». ويهاجم هذه العقيدة فى أن ربَّ المسيحيين يحنو ويعطف فقط على من أسرفوا على أنفسهم وارتكبوا الرذيلة وكانوا من الخطائين وأنه يستجيب لدعواتهم وتوسلاتهم، وفى هذه النقطة يذكر كيلسوس أنه بهذا المنطق فإن الإنسان السوى الخير يكون لا قيمة له عند ذلك الإله لأن مثل هذا الإله يثبت ذاته أساساً فى ما يسبغه من رحمة على الخطائين والمذنبين. ومن هنا يذكر سبب عداء المسيحية للفلاسفة ـ من وجهة نظره ـ وهو أنهم (أى المسيحيين) يرون فى «المعرفة داءً للروح وأن الروح التى تكتسب المعرفة تهلك». ثم يهاجم صلب العقيدة المسيحية فى تناقض يراه هو أساساً يتعلق بربِّ المسيحيين إذ يذكر أن الإله الحق يكون بوسعه أن ينقذ البشرية بقدرته المقدسة وحدها وبذلك يثبت أنه على كل شيء قدير. وهنا يتساءل عن ضرورة أن يلجأ الربُّ إلى أن ينزل من عليائه وعن الدافع لنزوله: هل لكى يثبت علمه بكل شيء؟ إن كان الأمر كذلك ـ يقول كيلسوس ـ فإنه قد أثبت عدم علمه ومعرفته وإلا لتنبأ بنتائج أفعاله، وإن كان ليثبت قدرته على

كل شيء فقد أوضح بنزوله أنه محدود القدرة لأنه لم يتمكن من منع وقوع مآسي حلت بابنه. وفي نفس هذا السياق يطرح كيلسوس فكرة أن «الربّ الذى ينتظر طويلا قبل أن يساعد الجنس البشرى على الخلاص من بؤسه لا يمكن أن يعد خيّراً: إذ أنه يرقب فى لا مبالاة انتصار الشر على الخير»(٤٩).

هذه نماذج من انتقادات كيلسوس وهجماته على المسيحية والمسيحيين وقد تصدى لآراء كيلسوس وهجماته على المسيحية والمسيحيين أوريجين وهو أبرز آباء الكنيسة فى الإسكندرية. ولد أوريجين بالإسكندرية حوالى عام ١٨٥م. من عائلة مسيحية واستشهد أبوه عام ٢٠٢م فى عصر اضطهاد الإمبراطور سبتميوس سيفيروس حين كان أوريجين شاباً متحمساً فى السابعة عشرة وكاد هو الآخر يلقى حتفه لكى يشارك أباه فى مصيره لولا توسلات أمه كما يروى يوسيبيوس أسقف قيصرية. وفى سن الثامنة عشرة عيّنه ديمتريوس أسقف الإسكندرية على رأس مدرسة الإسكندرية اللاهوتية الجدلية خلفاً لكليمنت السكندرى وظل على رأس هذه المدرسة حتى عام ٢٣٢م حين اختلف مع الأسقف ديمتريوس ورحل إلى قيصرية واستقر بها. وفى عام ٢٥٣م توفى فى صور نتيجة للتعذيب الذى تعرض له فى اضطهاد الإمبراطور ديكيوس(٥٠). وكان من بين كتابات أوريجين الغزيرة ثمانية كتب ألفها ضد كتاب كيلسوس ولكن للأسف فإن كتب أوريجين فى الرد على كيلسوس ليست متاحة أمام الباحث وقت كتابة هذا البحث (فى جامعة الكويت) ولذلك سيذكر الباحث المقدمة التى كتبها أوريجين لمؤلفه هذا منقولة عن مرجع اقتبسها كالتالى:

«عندما واجهت سيدنا ومنقذنا يسوع المسيح شهادة زور كاذبة ظل صامتاً، وحينما اتهم لم يحِر جواباً. فقد كان مقتنعاً بأن حياته بأكملها وفعاليته

وأنشطته بين اليهود كانت شاهداً فى صفه بصورة أكثر فعالية من الأقوال التى يدلى بها لدحض شهادة الزور ومن الكلمات التى يتفوه بها دفاعاً عن نفسه ضد الاتهامات... وإننى لأتجرأ وأعتقد بأن ذلك النوع من الدفاع الذى تطالبوننى به ربما يضعف الدفاع الذى تسوقه الحقائق وقوة يسوع التى يمكن أن يراها بوضوح كل من له عينان تبصران. ولكن لكى لا أبدو وكأنى قد رفضت المهمة التى أوكلتموها لى من خلال كسلى الصرف فقد حاولت أن أصوغ ما يتراءى لى أنه إجابة واضحة وصريحة على كل نقطة أثارها كيلسوس على أحسن ما أوتيت من مقدرة، رغم أن هذه (النقاط التى أثارها كيلسوس) لا يمكن أن تهز إيمان وعقيدة أى مؤمن. وأتمنى ألا يكون هناك أحد على قدر ضئيل من التجربة والخبرة فى حب الربّ يسوع المسيح بحيث يمكن أن يتزعزع فى يقينه بكلمات كيلسوس أو أى فرد على شاكلته...!

وعلى القارئ أن يدرك أن هذا الرد على كيلسوس لم يكتب للمؤمنين الراسخين فى إيمانهم وإنما كتب إما لمن ليس لديهم دراية على الإطلاق بالإيمان بالمسيح أو لأولئك الذين يصفهم بولس بأنهم «ضعاف الإيمان»... ولكن الأفضل هو من لا يحتاج على الإطلاق للإجابة على مؤلف كيلسوس حتى وإن صادفه، وإنما يمر مر الكرام على كل ما يحتويه الكتاب لأن أى مسيحى بسيط الإيمان يمكن ـ من خلال الروح التى بداخله ـ أن يعامله حقيقةً «باحتقار»[٥١].

ويرى أوريجين أن كيلسوس ربما يعتبر مدافعاً عن النظام القديم وقيمه الدينية وكان ينظر للمسيحية على أنها عقيدة تثير الفتن بشدة لأنها تأتى بأفكار تبدو له على أنها تعديلات فى العقائد القديمة لا مبرر لها[٥٢].

وفى رد أوريجين على مزاعم كيلسوس نجده يرد مثلا على تكذيب كيلسوس لمعجزات المسيح بالقول بأن كيلسوس نفسه قد أقر بأن هذه المعجزات ربما كانت حقيقية ويقول فى هذه النقطة : «وفى الموضوع التالى فإن كيلسوس وقد تشكك فى أننا سنطرح الأعمال العظيمة ليسوع والتى سبق أن ذكرناها بشكل طفيف للغاية يعود فيقر ويسلم بأنها ربما كانت حقيقية ـ يقصد بذلك كل ما سجل عن شفاء المرضى وإعادة الموتى للحياة أو عن الجماعة الكبيرة من الناس الذين تغذوا على بضع أرغفة قليلة ويتركوا وراءهم كسراً وفيرة منها وبقية القصص الأخرى جميعها التى يعتقد ويظن أن تلاميذ وحواريى المسيح صاغوها من نسج خيالهم ويضيف «حسناً، لنفترض أننا صدقنا أنكم فعلتم هذه الأمور حقاً» ثم سرعان ما يضع هذه الأمور على قدم المساواة مع أعمال السحرة على أساس أن حيلهم وحرفتهم لاتزال تثير قدراً أكبرمن الدهشة والعجب كما يضعهم على قدم المساواة مع ممارسات المصريين الذين يبيعون فنونهم المبجلة بدراهم معدودات على قارعة الطريق فى السوق العامة ويخرجون الأشباح من البشر ويزيلون الأمراض ويستحضرون أرواح الأبطال ويعرضون ولائم غالية ومكلفة بموائد وأنواع من الكعك والحلوى لا وجود لها ويحركون الجماد الذى لا حياة فيه كما لو كانت حيوانات تتحرك ويضفون عليها مناظر الحيوانات» . ثم يردف «إذا كان السحرة يفعلون ذلك فهل لابد لنا أن نعتقد أنهم أبناء الربّ أم أننا سنقول بأن هذه ممارسات أشرار بائسين»(٥٣) .

وقبل أوريجين كان هناك من تصدى ايضاً لمناوئى المسيحيين والمسيحية ودافع عن المسيحية وأتباعها ولكنه كان دفاعاً من نوع آخر، إنه دفاع عن المسيحية ضد اضطهاد وقهر الحكام الرومان فى الولايات والتفرقة التى

يمارسونها بين معاملة المسيحيين ومعاملة بقية رعايا الإمبراطورية الرومانية. صاحب هذا الدفاع عن المسيحية هو محامى ولد فى قرطاجة عام ١٦٠م. وتربى فى أسرة وثنية هناك وكان أبوه «قائد مائة» فى الجيش الرومانى هناك وفى شبابه اعتنق ذلك المحامى ترتليان (فلورنس كوينتوس سبتميوس ترتليانوس : حوالى ١٦٠ - ٢٢٥م) المسيحية، وكان قد تعلم من قبل البلاغة والخطابة والفلسفة والقانون. وفى حوالى عام ١٩٧م. ألف رسالة فى الدفاع عن المسيحية Apologeticus فى صورة حديث موجه من محامى إلى حكام الولايات الرومانية ويسعى من ورائه إلى أن يكفل للمسيحيين الحماية من هجمات العامة والدهماء ومن الإجراءآت غير القانونية عند مثولهم أمام المحاكم واستخدم فى ذلك مزيجاً من عاطفته المتأججة كمسيحى وسخريته اللاذعة(٥٤).

وسوف نقتبس فيما يلى بعضاً من فقرات هذا المؤلف الذى يتضح من ثناياه أن المسيحيين قد أصبحوا فى ذلك الحين على درجة كبيرة من التأثير وأن أعدادهم صارت كبيرة بالدرجة التى لا يمكن معها تجاهلهم أو احتقارهم والحط من شأنهم.

ففى ذكره لكثرة أعداد المسيحيين وانتشارهم فى كل مكان وعلى كافة المستويات يقول «إن الناس يتصايحون أن الدولة اكتظت بنا، فهناك مسيحيون فى المزارع (الريف) والقرى والجزر: إنهم من كل جنس وسن ووضع! نعم إن الشرف نفسه ليسعى نحو ذلك الاسم»(٥٥). ويقول فى موضع آخر عن نفس النقطة : «إننا أبناء الأمس (يعنى أن المسيحية حديثة النشأة) ومع ذلك فقد شغلنا كل أماكنكم من مدن وجزر وقلاع وبلدان ومصارف بل ومعسكرات وقبائل وعشائر وقصور ومجلس السناتو والسوق العامة، ولم ندع لكم سوى

المعابد»[٥٦]. وعن ظلم وتعسف حكام الرومان مع المسيحية ـ فى رأى ترتليان ـ يسوق الأمثلة على ذلك ويرى مثلا أن الإمبراطور تراجان كان متناقضاً لأنه يقول «لا يجب تعقبهم (أى المسيحيين) مما يوحى بأنهم أبرياء ثم يأمر بعقابهم مما يوحى بأنهم مذنبون. إنه يطلق سراحهم ويثور ويغضب عليهم، إنه يتظاهر بأنه لا يراهم ثم يعاقبهم»[٥٧].

وعن التفرقة فى المعاملة بين المسيحيين وغيرهم يقول فى إحدى الفقرات : ربما كنا مجرد فلسفة جديدة، ولكنكم لا تضطهدون الفلاسفة، إنهم يهدمون آلهتكم صراحة ويهاجمون خرافاتكم فى أطروحاتهم وأنتم تصفقون لهم. وكثير منهم ينبحون ضد أباطرتكم فتدعمونهم وتكونون أميل لمكافأتهم بالتماثيل والمنح بدلا من إدانتهم وإلقائهم للضوارى، حقًا ! فهؤلاء يسمون فلاسفة وليسوا مسيحيين !» [٥٨].

هذا عن التفرقة فى معاملة فكر الفلاسفة والفكر المسيحى، ثم يتطرق إلى نوع آخر من التفرقة وهو التفرقة فى الإجراءآت القضائية المتبعة مع المسيحيين مقارنة بغيرهم من سكان الإمبراطورية فيقول :

«أيًا كانت التهمة التى توجهونها إلينا فإنكم حين تتهمون أناساً آخرين فإن هؤلاء الآخرين يستخدمون فصاحتهم وبلاغتهم الشخصية ويلجأون إلى خدمات محامين يستأجرونهم من أجل إثبات براءتهم. ويكون لهم حرية الإجابة على التساؤلات وطرح الأسئلة أثناء الاستجواب لأنه لا يجوز فى الحقيقة إدانة أشخاص دون أن يدافعوا عن أنفسهم ومن غير أن نسمعهم. أما بالنسبة للمسيحيين دون سواهم فلا يسمح لهم بقول أى شىء لتوضيح قضيتهم وللدفاع عن الحقيقة ولإنقاذ القاضى من اقتراف الظلم، وإنما يكون

سعيكم نحو شيء واحد ضروري لإثارة كراهية الجماهير ألا وهو الاعتراف بالاسم، (أى الهوية الدينية Confessio nominis (أى الاعتراف من الشخص بأنه مسيحى) دون تحقيق فى التهمة. ومع ذلك فإذا كنتم تحاكمون أى مجرم آخر وأعترف (ذلك المجرم) بمسمى جريمته من قتل أو سرقة معبد أو انتهاك حرمته أو زنا أو عداء الدولة ـ أشير هنا للاتهامات التى توجه إلينا ـ فإنكم لا تكتفون ولا ترضون بإصدار الحكم عليه ما لم تقوموا بإجراء التحريات الكافية عن نوعية الفعل (الجرم) وعدد مرات ارتكابه ومكان وكيفية وزمان ارتكابه والمحرضين عليه والشركاء فى الجرم»(٥٩).

ثم يدافع عن المسيحيين وما يشاع عنهم من قبل مناوئيهم فيقول مثلا «إننا ننكر ألعابكم العامة ونتبرأ منها بشدة كما نتبرأ من أصولها لأننا ندرك ونعلم أن أصولها ومفاهيمها نابعة من الخرافات. وندع جانباً تلك الأمور المتصلة بها. ولا يعنينا فى شيء قول أو روية أو سماع جنون السيرك ووقاحة وخزى المسرح وهمجية ووحشية حلبة المصارعة وتفاهة الجمانزيوم. ما الذى يضايقكم إن كنا نتخذ متعاً أخرى غير متعكم؟ وإن كنا لا نرغب فى التمتع فإنها خسارتنا نحن على أية حال وليست خسارتكم. إننا نرفض ما يمتعكم، وما يسرنا لا يدخل السرور عليكم. ولكنكم سبق أن سمحتم للأبيقوريين بأن تكون لهم نظرتهم عن حقيقة المتعة من وجهة نظرهم وقد وجودها فى راحة النفس وهدوء البال... أما بالنسبة للمسيحيين فالجدل واسع»(٦٠).

ويقول فى موضع آخر:

«إننا مجتمع يشعر بإحساس دينى واحد وبوحدة التنظيم ويربطنا رابط مشترك هو الأمل... إننا نلتقى ونتذكر كلمات الرب المقدسة،وبهذه الكلمات

المقدسة نغذى إيماننا ونرفع أملنا ونؤكد يقيننا»(٦١).

وفى موضع آخر :

«انظر ـ هكذا يقولون ـ كيف يحبون بعضهم البعض (المسيحيين) ـ (لأنهم هم يكرهون بعضهم البعض) ـ ومدى استعدادهم للموت فى سبيل بعضهم البعض (فى حين هم «الوثنيون» أكثر استعداداً لقتل بعضهم البعض)»(٦٢) تلك كانت مقتطفات من دفاع ترتليان عن المسيحية والمسيحيين.

ويبدو أن هذا الدفاع من جانب ترتليان قد أثرّ وترك بصماته على المدفاعين عن المسيحية من بعده فى أوائل القرن الثالث ق.م. ومن هذه الأعمال التى تأثرت بطريقة ترلتيان أطروحة تسمى «أوكتافيوس» كتبها أيضاً محامي وخطيب كان يمارس مهنته فى روما ويدعى م. مينوكيوس فيلكس اعتنق المسيحية فلم يعد مؤهلا لممارسة المحاماة فى روما. وقد كان مينوكيوس فيلكس مثقفاً طليقاً ومقروئاً يقتبس بحرية من فرجيل وأوفيد ولوكريتوس وتأثر فى الخطابة بشيشرون وسينيكا وتأثر فى الموضوع والمعالجة بترتليان المحامى القرطاجى وإن كان جو هذه الأطروحة ومشاهدها مأخوذة من روما المدينة العالمية فى ذلك الحين(٦٣). ويسجل مينوكيوس فيلكس فى هذه الأطروحة «أوكتافيوس» مناظرة جرت بين اثنين من أصدقائه أحدهما وثنى ويدعى كوينتوس كايكيليوس ناتاليس والآخر مسيحى ويدعى أوكتافيوس جانواريوس الذى أطلق اسمه على الأطروحة كلها. وفى هذه المناظرة يبدأ كايكيليوس ممثلا للجانب الوثنى والفكر الوثنى ويهاجم المسيحية ويبرز الإدعاءات الموجهة إليها ويصورها على أنها ديانة هادمة للذات ولكل متع الحياة، وبعد أن ينتهى

كايكيليوس من ذكر مآخذه على المسيحية يتحدث مينوكيوس فيكلس ـ حكم المناظرة ـ وينتهز الفرصة ليستعرض فطنته وبراعته القضائية على قواعد من القرائن والأدلة ويتحدث عن العلاقة بين الخطابة والبلاغة من ناحية والجدل المنطقى من ناحية أخرى، وأخيراً ينغمس أوكتافيوس ممثل المسيحية فى الدفاع الحار عن المسيحية والرد على نقاط كايكيليوس. وتنتهى المحاورة باعتناق كايكيليوس للمسيحية من خلال جدية وفصاحة وسحر بيان صديقه أوكتافيوس(٦٤).

وسوف نعرض هنا مقتطفات من نقاط هجوم كايكيليوس فى هذه المناظرة على المسيحية وكذلك من دفاع أوكتافيوس عنها وهى مساجلة طريفة بصورة متميزة تعطى صورة للأوضاع الاجتماعية والدينية فى روما فى نهاية القرن الثانى الميلادى ومن بين هذه الأوضاع التفاعلات بين المسيحية الأفريقية والمسيحية فى روما التى تشكل أحد الملامح التنويرية(٦٥). وفى دفاع كايكيليوس عن الوثنية يذكر فضل الآلهة الوثنية فى انتصارات الرومان المبكرة وتكوين امبراطوريتهم الواسعة التى تعد مثلا مجسداً(٦٦) ـ من وجهة نظره ـ على صدق وحقيقة انعقيدة الوثنية ويضرب أمثلة على ذلك من التاريخ الرومانى. ثم يهاجم المسيحية ويذكر المآخذ والتهم الموجهة للمسيحية من خصومها والتى روج لها الوثنيون وهى قصص وشائعات عن أكل لحوم البشر ولعق دمائهم من جانب المسيحيين وقيامهم بطقوس وشعائر احتفالات حب صاخبة ومعربدة وعلاقات جنسية غير مشروعة وشائعة بين «الأخوة» و«الأخوات»، وعن عبادتهم لشخص آثم مصلوب، وعن أداء طقوس سرية فاحشة تجتنب ضوء النهار فيقول مثلا : «إنهم (أى المسيحيين) يتعرفون على بعضهم البعض بعلامات وإشارات غامضة، وهم يقعون فى الحب قبل أن

يتعارفوا ويدخلون فى كل مكان عقيدة ذات طابع شهوانى وعلاقات زنا بين الأخوة والأخوات تنقلب ـ تحت ستار اسم مقدس ـ إلى زنا بالأقارب. وهكذا فإن خرافاتهم الفارغة الحمقاء تجعلهم يباهون بالجريمة.

«لقد قيل لى أنهم تحت وطأة حمق وبلاهة يقدسون رأس الحمار ويتعبدون لها ـ وهو أحقر الحيوانات ـ فهى إذن ديانة جديرة بهؤلاء البشر الذين أفسحوا الطريق لها. ويقول آخرون أنهم يقدسون أعضاء وأطراف مرشدهم وكاهنهم الأكبر...

«إن تفاصيل طقوس ضم أعضاء جدد أو معتنقين جدد لعقيدتهم لتفاصيل مثيرة مستفزة سيئة السمعة: إذ يوضع طفل مغطى بالعجين فى صندوق بجوار الشخص الذى سيعتنق عقيدتهم وذلك لخداع هؤلاء البسطاء ذوى النية الحسنة. ثم يحث ذلك المعتنق الجديد ـ وهو معصوب العينين ـ على توجيه ضربات تبدو غير مؤذية على قطعة العجين مما يؤدى إلى قتل الطفل متأثراً بجراحه وهنا يلعقون ـ يا للهول ! ـ دمائه بصورة شرهة ويمزقون أوصاله بشغف شديد ويعقدون اجتماعهم ويأخذون عهدهم وميثاقهم فوق هذه الضحية، ومن خلال مشاركتهم فى الجرم يلزمون أنفسهم بالصمت المتبادل «إلى نهاية الفقرة من اتهامات مشابهة بالشهوانية والممارسات الجنسية غير المشروعة فى طقوسهم الاحتفالية(٦٧).

ثم يطرح أسئلة هجومية عن المسيحية وأتباعها مثل :

«لماذا يبذلون كل هذه الجهود من أجل حجب وإخفاء موضوع عبادتهم فى الوقت الذى تبتهج فيه كل الأمور الكريمة الشريفة بالنور والعلانية وتتسم الآثام والشرور بالسرية والكتمان؟ لماذا لا نجد لديهم مذابح ولا معابد ولا صور

أو تماثيل معترف بها؟ لماذا لا يتحدثون على الملأ ولا يلتقون فى العلن إلا إذا كان ما يعبدونه ويخفونه إما إجرامياً أو شائناً؟»[٦٨]

ثم يهاجم بعض المعتقدات الدينية المسيحية ومنها البعث والخلود فيقول:

«إنهم يقولون أنهم يولدون من جديد بعد الموت من الرماد والثرى ولا أدرى ما هذه الثقة التى يصدقون بها أكاذيبهم المشتركة... إنهم ينكرون العدم لأنهم بعد أن يموتوا ويفنوا ـ فنحن مخلوقات تولد لتفنى ـ يعدون أنفسهم بالخلود والأبدية»[٦٩].

أما أوكتافيوس فيرد على كايكيليوس ويبدأ فى تفنيد مزاعمه بملاحظة أن كايكيليوس قد اتبع فى حديثه بالكامل اتجاهاً رافضاً ونافياً وملتبساً غير واضح المعالم : فقد أثار دعاوى وصعوبات معينة ولم يأت بأدلة أو قرائن فى دفاعه تثبت حجية الاعتقاد فى تعدد الآلهة ومنطقيته، ويثير أوكتافيوس قضية مفادها أن العقل والمنطق هو نقطة تميز الإنسان وأنه حتى الفقراء والبسطاء يجب أن يصدروا فى أحكامهم عن ضمائرهم وقدراتهم[٧٠]. ثم يستعرض أوكتافيوس بالتفصيل وبطريقة بلاغية جدلا عن الآلهة الوثنية وطبيعتها مستقى بصورة كبيرة من أطروحة شيشرون «عن طبيعة الآلهة De Natura Deoroum» ومن آراء سينيكا فى ذلك الموضوع[٧١]. ثم يناقش على أسس مشابهة أصل هؤلاء الآلهة فى الفولكلور (التراث الشعبى) والأسطورة والشعر وعبادة الأبطال مع أمثلة توضيحية غزيرة بها عناصر بربرية متنافرة بشعة وغير عقلانية ومنحدرة ووضيعة تحتفظ بها الأساطير والطقوس وأشكال العبادة. ثم يأتى بأمثلة من التاريخ تدل على عدم تميز وتفرد آلهة الرومان، فقد كانت هناك أمم عظيمة وامبراطوريات عظمى ذات آلهة وكهانة مختلفة سبقت ونافست الرومان، ومن

جهة أخرى فإن الأمم التى أخضعتها روما لها آلهة اتخذتها روما أرباباً لها واعترفت بها على قدم المساواة مع آلهة روما، بل أن آلهة الذين انهزموا تتمتع بشعبية ورواج أكثر من آلهة المنتصرين الغزاة.

إن آلهة الرومان المحلية وطقوسهم ـ من وجهة نظر أوكتافيوس ـ ذات مقومات أفقر وأقل نفوذاً من آلهة الإغريق وفريجيا وسوريا ومصر. ويشن حملة هجوم على ما يزعم الرومان أنه أصول مقدسة لمدينة روما ويتناول تاريخهم وكيف أن مدينة روما أسست كملجأ لجماعة من المتشردين والقتلة ثم اختطاف الرومان لنساء السابين وموجات العنف المتلاحقة، والعقيدة الفاسدة وانتهاك الحرمات والمقدسات من جانب الرومان، وهى الدعائم التى قامت عليها الامبراطورية الرومانية[٧٢].

يبدو أن مثل هذه الهجمات على الرومان وعقائدهم وأصولهم التاريخية هى السبب فى اتهام الأباطرة والموظفين الرومان للمسيحيين بأنهم أعداء الدولة وفى نظرة التشكك والعداء لهم ولأهداف ودعايات المسيحية.

ثم يبدأ أوكتافيوس بعد ذلك فى الدفاع المنطقى عن النقاط التى أثارها كايكيليوس عن عبادة وطقوس وعقيدة المسيحيين وعن التهم الموجهة إليهم وسنورد فيما يلى مقتطفات من ذلك الدفاع. فرداً على تهمة أن المسيحيين يعبدون رأس حمار ويعبدون شخصاً آثماً مصلوباً ويعبدون الصليب الخشبى رمزاً للصليب الذى صلب عليه مسيحهم يرد أوكتافيوس على هذه النقاط كما يلى:

«إن من الظلم إصدار أحكام ـ كما يفعلون ـ دون معرفة وتحرى وتثبت كما يذكرنا الضمير المذنب المعذب. لقد كنا نحن (المسيحيين) أيضاً فى نفس

وضعكم ذات يوم وكنا نشاطركم أفكاركم بطريقة عمياء غبية وكنا نفترض أن المسيحيين كانوا يعبدون الوحوش ويلتهمون الأطفال ويقيمون ويشتركون في احتفالات كلها زنا؛ ولم نكن ندرك حينئذ أن الشياطين هي التي كانت تروج لهذه الخرافات دون تثبت أو برهان... إن المسيحيين المتهمين بعيدون كل البعد عن اقتراف أي جرم من أي نوع وهم لذلك لا يخجلون ولا يهابون، وإنما يأسفون على شيء واحد هو أنهم لم يكونوا مسيحيين من قبل»(٧٣).

«أما عن الأقاويل التي تذكر أنك سمعتها عن اتخاذنا رأس حمار كشيء مقدس: «مَنْ ذلك الأحمق الذي يعبد مثل هذا؟ ومَنْ ذلك الأكثر حماقة الذي يصدق أن هناك عبادة مثل هذه ؟ ربما لا يصدق ذلك سوى أولئك الأشخاص من بينكم الذين يحتفظون بحمير كاملة في اسطبلاتكم لتقديمها تقرباً وزلفى لربتكم أو ربتهم (إيبونا) (إيبونا هي الربة الحامية للخيل والحمير والبغال عند الرومان: انظر الملحوظة على ذلك أسفل النص اللاتيني) كما أنكم تزينون هذه الحمير برفقة إيزيس في المواكب وتقدمون الأضحيات وتتعبدون لرؤوس الثيران والكباش كما أنكم تكرسون آلهة نصفها ماعز ونصفها إنسان وآلهة لها رؤوس سباع أو كلاب. ألا تشاركون المصريين في تبجيل وتغذية العجل أبيس؟ وتقرون الطقوس التي تقام تبجيلاً للثعابين والتماسيح وكل الحيوانات والطيور والأسماك وهي آلهة يعاقب مَنْ يقتلها أو يذبحها بالموت ؟»(٧٤)

«أما عن عبادة إنسان شرير آثم وصليبه وهو ما تعزونه إلى عقيدتنا وديننا فإنكم تجافون الحقيقة وتنأون بعيداً عنها عندما تفترضون أن إنساناً أو مجرماً مؤذياً يمكن أن يُصدَّق على أنه إله. إنه لإنسانٌ بائس يستحق الرثاء ذلك الذي

يعقد آماله على بشر فان فينهار كل ما بناه عليه إذا ما لقى حتفه» (٧٥).

«وكذلك فإننا لا نعبد الصلبان ولا نعقد آمالنا عليها. أما أنتم يا من تكرسون آلهة من الخشب فمن الممكن جداً أن تقدسوا صلباناً خشبية كأجزاء من آلهتكم. أليست أعلامكم وراياتكم وشارات معسكراتكم عبارة عن صلبان مذهبة ومزركشة؟» (٧٦).

ثم يرد أوكتافيوس بعد ذلك على نقطة تجمع المسيحيين فى الخفاء وعدم وجود أضرحة أو مذابح أو تماثيل لهم فيقول:

«هل تفترضون أننا نخفى ما نعبد لأنه ليس لدينا أضرحة أو مذابح؟ ما هى الصورة التى أتخذها للربّ إذا كان الإنسان نفسه ـ إن صح القول ـ على شاكلة الرب؟ وأى معبد يمكن أن أشيده له والكون بأسره من صنعته ولا يمكن أن يحتويه ؟ أيكون بوسعى أنا ـ وأنا بشر وأسكن فى كون فسيح ـ أن أقيد فى ضريح صغير قوة بمثل هذا الجبروت؟ أليس من الأفضل أن نكرس الربّ فى عقولنا أو فى سويداء قلوبنا وبين حنايانا؟ هل أقدم للربّ قرابين وأضحيات أسبغها هو علىّ لكى أستفيد بها وبذلك أرد عليه نعمه وعطاياه؟ إن مَنْ يحرصون على الطهارة من الإثم يصلون للربّ ومن يتبع العدالة فهو يقدم القرابين للربّ ومَنْ يجتنب الغش والخداع يسترضى الربّ ومَنْ ينقذ إنساناً من الخطر فكأنما قدم (ذبح) أفضل أضحية. هذه هى أضحياتنا وهذه هى طقوسنا المقدسة للربّ. أن الأتقى عندنا هو الأعدل (أى أن العدالة هى معيار التقوى).

« (ولكنكم تذكرون) أن الربّ الذى نعبده لا نظهره ولا نراه. كلا ! فمن هنا نعتقد فيه كإله لأننا نستطيع أن ندركه رغم أننا لا نراه: فنحن نبصر حقيقته الماثلة على الدوام فى أفعاله وفى كل حركات الكون: فى الرعد والبرق

والصواعق والسماء الصافية (حين ترعد السماء وتبرق وترسل بصواعقها وتصفو).

ليس هناك إذن ما يدعو للعجب حين لا ترى الربّ، فكل شيء يندفع ويهتز ويضطرب ويرتبك نظامه من جراء الريح والعواصف ومع ذلك فإنه لا الريح ولا العواصف تدركها الأبصار. إننا لا نستطيع النظر إلى الشمس رغم أنها هي سبب رؤيتنا لكل الأشياء، فأشعتها تخطف الأبصار وتجعل نظر الرائي يعتم، وإذا ما أمعن الإنسان النظر إليها يتلاشى وينطفئ بصره كليةً. فكيف ـ والأمر كذلك ـ يمكنك أن تتحمل النظر إلى خالق الشمس ذاته أى إلى ذلك الفيض من الضياء وأنت تحول وجهك عن برقه وتختفى من صواعقه. هل تتوقع أن ترى الربَّ بأعين من لحم بشرى وأنت لا تستطيع أن ترى أو تمسك بروحك التى هى مصدر حياتك وحديثك[٧٧]؟ وكان كايكيليوس قد قارن فى أثناء حديثه بين اليهود والمسيحيين وذكر أنه لأمر عجيب أن يكون هناك إله واحد متفرد يتعبد إليه الناس. ويذكر أنه «وإن كانت أمة اليهود البائسة قد عبدت إلهاً واحداً ولكنهم كانوا يعبدونه فى العلن: فى معابد ومذابح وبأضحيات ومواكب احتفالية، ومع ذلك فقد كان إلهاً ضعيفاً لا حول له ولا قوة وكان هو وأمته أسيراً للرومان»[٧٨].

وفى رد أوكتافيوس على هذه النقطة يقول:

«ولكن ما الذى جناه اليهود من أنهم هم أيضاً قد عبدوا إلهاً واحداً فى معابد ومذابح وبأقصى تقديس وتبجيل؟ (هذا هو سؤالكم) ولكنك تنزلق إلى الجهل إذا ما سجلت ـ عن سهو أو عن جهل ـ المرحلة المتأخرة (من تاريخ اليهود) وأغفلت تاريخهم المبكر. إن اليهود عندما عبدو ربّنا الواحد ـ وهو إله

واحد للجميع ـ في طهارة وبراءة وقداسة، وعندما كانوا يطيعون تعاليمه المنقذة كانوا قلة فصاروا كثرة وكانوا فقراء فصاروا أغنياء وتحولوا من عبيد إلى ملوك وتغلبوا رغم قلة عددهم وعتادهم على مَنْ يفوقونهم عدداً وعتاداً... وإذا ما قرأت كتاباتهم هم (اليهود)، أو فلندع جانباً كتّابهم القدامى ونتجه إلى فلافيوس جوسيفوس، أو إن كنت تفضل الرومان فيمكنك أن تطالع أنطونيوس يوليانوس عن اليهود، ولسوف ترى أن المصير السيء الذى آلوا إليه كان من جراء شرهم وكيدهم وأن كل ما حدث لهم كان هناك تنبؤ مسبق به وبحدوثه إذا أصرّوا على غيهم. ولسوف تدرك أنهم تخلوا عن الربّ قبل أن يتخلى عنهم وأنهم لم يقعوا فى الأسر مع ربِّهم ـ كما تزعم زوراً وبهتاناً ـ وإنما أسلمهم الربّ لأنهم هجروا تعاليمه ونظمه»(٧٩).

أما عن الرد على الاستهزاء بالبعث والحياة الأخرى فى المسيحية فيرده قائلا:

«فننظر أيضاً كيف أن الطبيعة ـ وهو أمر مريح لنا ـ توحى فى كل ظواهرها ببعث مستقبلى: فالشمس تغرب ثم تولد من جديد، والنجوم تغيب عن البصر ثم تعود والأزهار تتساقط ثم تتجدد حياتها، والأشجار تشيخ ثم تزهر وتورق، والبذور لابد لها أن تذوى لكى تتجدد حياتها. إن الجسد فى القبر مثل أشجار الشتاء التى تخفى إخضرارها تحت رداء جفافها. لماذا تصر على أن تعود للحياة وتزدهر فى زمهرير الشتاء، لابد أن ننتظر حتى يأتى ربيع الجسد»(٨٠).

ثم يرد على تهمة الزنا بالأقارب التى أُلصقت بالمسيحيين فيقول:

«إنكم (للوثنيين) تحرمون الزنا وتمارسونه، أما نحن فقد جُبلنا على أن نكون أزواجاً لنسائنا فحسب: إنكم تعاقبون على الجرائم بعد ارتكابها، أما

بالنسبة لنا فالتفكير فى الجريمة خطيئة، أنتم تخشون صوت الشهود أما نحن فنخشى صوت الضمير دون سواه وبدونه لا نستطيع أن نكون. وأخيراً فإن السجون تعج بأتباعكم، وليس بها مسيحى واحد باستثناء المتهمين فى دينهم كمارقين وكفرة (بالوثنية)»(٨١).

نكتفى بهذا القدر من مقتطفات دفاع أوكتافيوس عن المسيحية والمسيحيين ومن خلالها نرى مدى ما أصبح للمسيحيين من قوة وانتشار وقوة منطق داخل روما نفسها فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الميلادى. ولعل هذا يعوض نسبياً عدم تمكننا من إيراد مقتطفات كبيرة من رد أوريجين السكندرى على اتهامات كيلسوس ـ وهو رد لاحق زمنياً على رد أوكتافيوس المذكور ـ وذلك لعدم توافر المصدر الخاص بأوريجين تحت يد الباحث كما أسلفنا.

٢- المسيحية من خلال الوثائق البردية.

والآن ننتقل إلى الجزء الثانى من هذا البحث وهو الجزء الخاص بالمسيحية كما تبدو فى الوثائق البردية منذ حوالى منتصف القرن الثالث. ولكن قبل أن ندع الوثائق البردية تتحدث ونستشف من ثناياها وضع المسيحية فى مصر ـ موطن هذه الوثائق البردية ـ فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين نشير إلى أننا كنا قد وصلنا إلى وضع المسيحية فى الإمبراطورية الرومانية فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الميلادى وهو وضع وصل إلى درجة من القوة والتغلغل فى أرجاء الإمبراطورية ـ من خلال التسامح النسبى مع المسيحيين على يد أباطرة القرن الثانى ـ جعلت الفزع ينتشر بين الوثنيين من سكان الامبراطورية ونجم عنه حالات اضطهاد وتآمر ضد المسيحيين فى أى فرصة تتاح

لهم، كما أثارت حنق مفكرى الوثنية ومثقفيها وجعلتهم يهاجمون المسيحية وتعاليمها ويروجون ضدها بعض المزاعم التى حفزت مثقفى المسيحيين وجعلتهم يردون عليها بصورة دفاعية بل وهجومية على الوثنية وقيمتها وجدواها ورأينا صوراً مقتطفة من الجدل والحوار الساخن بين ممثلى المفكرين. ورأينا أن آخر هذه السلسلة من المدافعين عن المسيحية فى الفترة التى تعرضنا لها هو زعيم مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وخليفة القديس كليمنت وهو أوريجين الذى رد على مطاعن كيلسوس عن المسيحية فى كتابه «عن العقيدة الصحيحة» بثمانية كتب فى خلال النصف الأول من القرن الثالث الميلادى قبل أن يتعرض للاضطهاد وهو فى مدينة صور فى عهد الإمبراطور ديكيوس ثم وفاته عام ٢٥٣م.

وقبل أن ندخل فى الوثائق البردية نشير فى إيجاز إلى الوضع الرسمى - بعدما رأينا الوضع الفكرى والاجتماعى - للمسيحية فى خلال النصف الأول من القرن الثالث الميلادى، سبق أن رأينا عند الحديث عن أوريجين أن أباه قد قتل عام ٢٠٢م. أثناء الاضطهاد الذى مارسه الامبراطور سبتميوس سيفيروس ضد المسيحيين. وعن هذا الاضطهاد يذكر يوسيبيوس القيصرى فى مؤلفه «التاريخ الكنسى» أنه كان اضطهاداً موجهاً ضد الكنائس
وشهد مصرع شهداء عظام من أبطال التقوى والورع فى كل مكان ولكن كانت منهم كثرة فى الإسكندرية على وجه الخصوص حيث سيق إلى هناك أبطال الربّ من مصر ومن كل الإقليم الطيبى الذين تحملوا بثبات أنواع من العذاب متعددة وصنوفاً من الموت فتوجهم الربُّ بأكاليله(٨٢). ولكن رغم ذلك فإن نساء البيت الامبراطورى جوليا دومنا وجوليا مايسا وجوليا ماميا من العائلة الملكية والكهنوتية فى حمص كانت لهن ميول دينية واسعة وشغف بالدين.

ويذكر أن جوليا مامايا أم الإمبراطور سيفيروس الإسكندر (٢٢٢ – ٢٣٥م) التقت بالفعل بأوريجين وحاورته، وأن الامبراطور سيفيروس الإسكندر نفسه كان يحتفظ بصورة المسيح وإن كان ذلك أمراً مشكوكاً فيه[٨٣]. على أى حال فإن ذلك يعنى أن حكم سيفيروس الإسكندر لم يشهد ـ على الأقل ـ اضطهاداً للمسيحية والمسيحيين، بل أن معظم أهل البيت الامبراطورى كانوا من المؤمنين πρὸς τὸν Ἀλεξάνδρου οἶκον, ἐκ πλειόνων πιστῶν συνεστῶτα.

ثم حدث اضطهاد فى عهد الإمبراطور ماكسيمينوس الأول (٢٣٥ – ٢٣٨م) الذى أحب الجيش وحده وكره كل من عداه [٨٥] وراح نتيجة هذا الاضطهاد زعماء الكنيسة وكان ذلك انتقاماً من سلفه سيفيروس الإسكندر وأسرته المتدينة[٨٦].

أما الإمبراطور فيليب العربى (٢٤٤ – ٢٤٩م) فقد كان متزوجاً من زوجة مسيحية هى أوتاكيليا سيفيرا وكان على علاقة طيبة بالكنيسة بل ويذكر أنه اعتنق المسيحية[٨٧] . كما اشتكى الوثنيون من قلة حماسه عندما احتفل بالعيد الألفى لنشأة روما عام ٢٤٧م. أما عن خليفة فيليب العربى تراجان ديكيوس (٢٤٩ – ٢٥١) الذى نصبته على العرش جيوش الدانوب فزعم أنه تراجان الثانى الذى سيعيد قوة الرومان وفضائلهم Virtus ويسحق العناصر الضعيفة التى كانت تهددها. وقد أمضى ديكيوس فترة حكمه فى صراع مرير ضد القوط بزعامة كنيفا ولقى مصرعه فى ميدان القتال فى أبريتوس عام ٢٥١م، ولكنه قبل وفاته كان أول من شرع فى أول اضطهاد عام ضد المسيحيين. وهنا يبدأ دور الوثائق البردية فى إلقاء الضوء على المسيحية وتكثر هذه الوثائق فى أواخر القرن الثالث والقرن الرابع الميلادى وتتناول موضوعات عديدة. وسنحاول فيما يلى إبراز بعض الموضوعات المتعلقة بالمسيحية والتى

وردت فى الوثائق البردية ونختار بعضاً من النقاط ذات الأهمية فى تطور الديانة المسيحية وسنبدأ باضطهاد ديكيوس.

اضطهاد ديكيوس:

فى أواخر عام ٢٤٩ق.م. أصدر الإمبراطور ديكيوس مرسوما يطالب فيه كل سكان الإمبراطورية بأن يقدموا الأضحيات للآلهة الوثنية وأن تصدر شهادات لمن قدموا هذه الأضحيات من الموظفين المحليين كلٍ فى منطقة اختصاصه تثبت تنفيذ هؤلاء السكان للأمر الامبراطورى وكان يطلق على هذه الشهادات الاسم اللاتينى libelli. وهناك فى الوثائق البردية ٤٥ وثيقة من هذا النوع فى صورة التماسات مقدمة من أفراد قاموا بتقديم هذه الأضحيات والقرابين للآلهة تنفيذاً للمرسوم الامبراطورى ويطلبون من الموظفين المحليين أن يوقعوا لهم بما يفيد تنفيذهم لأمر الامبراطور فى هذا الصدد. وقد تم تجميع ٤١ وثيقة من هذه الوثائق ونشرت معاً عام ١٩٢٣ ثم بعد ذلك ظهرت ٤ وثائق نشرت فى أماكن متفرقة. ومعظم هذه الوثائق أو الشهادات من إقليم الفيوم ـ وخصوصاً من قرية ثيادلفيا ـ بطن حريت) حيث وصلنا منها ٣٤ شهادة من هذا النوع ـ وبعضاً من إقليم أوكسيرينخوس (البهنسا الحالية فى مصر الوسطى) [٨٨].

وقد كان يُظن أول الأمر أن هذا الإجراء الخاص بتقديم الأضحيات للآلهة الوثنية كان مقصوداً به فقط مَنْ يُشك فى اعتناقهم للديانة المسيحية[٨٩]. فمن خلال هذا الإجراء يُقطع الشك باليقين فمن يلتزم بأداء هذه الطقوس الوثنية تنتفى عنه تهمة المسيحية أو يكون ـ على الأقل ـ قد ارتد للوثنية وإن امتنع يكون قد أكد الشك فيه ويلقى العقاب والاضطهاد. وهناك

مَنْ يعتقد بأنه لم يصدر مرسوماً واحداً فى هذا الصدد بل اثنان الأول موجه ضد زعماء الكنيسة والثانى أشمل وأوسع نطاقاً على مستوى الإمبراطورية كلها، بل ومن يظن أن الاضطهاد مرّ بمراحل ثلاثة [٩٠]، ولكن ليس هناك من قرائن تدعم هذه الافتراضات. الأرجح أن ديكيوس أصدر مرسوماً واحداً فقط فى هذا الشأن يطالب جميع سكان الامبراطورية بلا استثناء ـ كما أسلفنا ـ بإقامة طقوس العبادات الوثنية فى حضور لجان محلية تخصص لإثبات ذلك. ومما يؤكد ذلك بشكل قاطع أن كاهنة وثنية من مدينة الفيوم (أرسينوى) طلب منها إقامة هذه الطقوس ونورد هنا نص التماسها إلى اللجنة المسئولة عن ذلك:

«إلى أعضاء اللجنة المنتخبة للإشراف على الأضحيات من أوريليا أمونوس ابنة ميستيس كاهنة بيتيسوخوس الإله الأعظم الخالد وآلهة مويريس (المنطقة المجاورة لبحيرة مويريس أى بحيرة قارون الحالية) فى حى مويريس. إننى أقوم على الدوام بتقديم الأضحيات للآلهة **طوال حياتى**، والآن ـ ووفقاً للأمر الصادر وفى حضوركم ـ قدمت الأضحيات وسكبت قرباناً وتذوقت لحوم الأضحيات، وأطلب منكم أن ترفقوا توقيعاتكم»[٩١].

هذه الوثيقة تؤكد أن هذا الاختبار لم يكن قاصراً على مَنْ يشك فى اعتناقهم المسيحية لا سيما وأن هذه السيدة كاهنة ـ فى الخدمة وليست سابقة[٩٢] لأحد الآلهة الوثنية المعروفة فى إقليم الفيوم، وصيغة تعبيرها عن الموقف تنم عن دهشة ـ وربما استنكار ـ لذلك التصرف حيالها لأنه بالنسبة لها أمر يجافى المنطق إذ تذكر «إننى أقوم دوماً بتقديم الأضحيات للآلهة طوال حياتى» أى أنها تمتحن فى أمر بديهى بالنسبة لها وأنها تفعل ذلك بطبيعتها وطوال حياتها دون انتظار لمرسوم امبراطورى يطلب ذلك[٩٣]. هذا يدل على أن

المرسوم كان يسرى على كل سكان الامبراطورية بغير استثناء وينطبق حتى على مَنْ لا تحوم ذرة من الشك حول اعتناقهم المسيحية من أمثال هذه الكاهنة.

ولم يكن القيام بهذه الطقوس يطلب من الكبار أو البالغين فقط وإنما أيضاً من القصر الذين كانوا يؤدون هذه الطقوس ـ وفقاً للمرسوم الامبراطورى ـ مع ذويهم وخاصة أمهم كما يظهر فى بعض الوثائق(٩٤)، وفى بعض الأحيان نرى هؤلاء القصر يقومون بهذا الإجراء بمفردهم كما نرى فى حالة صبى فى الحادية عشرة من عمره من قرية تابعة لأوكسيرينخوس، وصدّق له على هذا الإجراء لجنة مشكلة من ستة أفراد أقرّت قيامه بالطقوس المطلوبة(٩٥).

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو : ما الهدف من هذا المرسوم ومن تطبيقه على الامبراطورية بأسرها ؟ هل كان الغرض منه أن يكون إجراءً مضاداً للمسيحية كما كان يعتقد ويشعر المسيحيون فى ذلك العصر؟ أم أنه كان يهدف إلى ضمان تماسك وصلابة الامبراطورية ووحدتها من خلال وحدة عبادتها والتقرب إلى الآلهة لدفع حالة عدم الاستقرار السياسى والاجتماعى التى أفسدت الامبراطورية ؟(٩٦) أم أن الدافع من وراءه كان سياسياً كما يؤكد يوسيبيوس القيصرى عندما يعزو الدافع إلى مرسوم ديكيوس إلى كراهية ديكيوس لسلفه فيليب العربى الذى أعتقد يوسيبيوس أنه ربما كان مسيحياً ؟ (٩٧).

إن معظم الشواهد والقرائن ترجح أن ديكيوس أصدر هذا المرسوم كإجراء مضاد للمسيحية، ويرى جوزيف فوجت(٩٨) أن ديكيوس كان واحداً من مجموعة من الأباطرة الذين يمكن أن نطلق على نظرتهم للدين والآلهة أنها

كانت نظرة «قديمة وعفا عليها الزمن» إذ كانوا يعتقدون بأن القدر ـ خيره وشره ـ مصدره الآلهة، وقياساً على هذا فإن التفسير الوحيد للكوارث العديدة في منتصف القرن الثالث هو عدم رضا هذه الآلهة وإنه لابد من إرضاء هذه الآلهة من أجل استعادة الأمن ولكي تسير الأمور سيراً حسناً، وكان يعتقد أن المسيحيين هم مصدر هذا السخط والحنق الإلهي كما رأينا في أقوال ترتليان من قبل. ومما يرجح هذه النظرة أن رجال الدين المسيحي من تلك الفترة في منتصف القرن الثالث الميلادي يصفون مدى المعاناة والاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون في ظل مرسوم ديكيوس إذ يحتفظ لنا يوسيبيوس القيصري بخطاب لديونيسيوس أسقف الإسكندرية الكبير في منتصف ذلك القرن يعطي فيه صورة حية لهذه الفظائع ويصف كيف كان الرجال والنساء يضربون بالعصي وتسمل أعينهم بأغصان مدببة وحادة ويسحبون على الأرض الخشنة من الشوارع إلى إحدى الضواحي حيث يرجمون أو يحرقون حتى الموت. ويبدو أن هذا المرسوم الامبراطوري كان بمثابة تفويض مطلق للوثنيين في الإسكندرية في القيام بأعمال عدائية ضد المسيحيين وتنفيذ هذه الجرائم السالفة الذكر والتي كانوا متورطين فيها بالفعل قبل اثني عشر شهراً[٩٩]. كما أن بعض كتاب المسيحية يعتبر مقتل ديكيوس سنة ٢٥١م على يد القوط «انتقاماً إلهياً Ultio divina» وينظر إلى ما قام به ضد المسيحيين بوصفه «اضطهاداً عدوانياً Persecutio in-festa»[١٠٠]. ومما يؤكد هذا المنحى من جانب ديكيوس ضد المسيحيين والمسيحية هو استشهاد الباب فابيانوس في روما في تاريخ مبكر من عهد ديكيوس في العشرين من يناير سنة ٢٥٠م[١٠١]، وهناك عبارة تنسب إلى ديكيوس عقب مقتل فابيانوس تعد ـ في حالة صحة نسبتها إليه – دليلا قوياً على الاتجاه المضاد للمسيحية ونيته في تعقبها إذ يعزى إليه قوله «أفضل لي أن

أتلقى أنباء عن منافس لى على العرش من أن أسمع بأسقف أخر فى روما»[١٠٢]. ومع ذلك يذكر البعض أن ديكيوس لم يأمر المسيحيين بالتخلى عن عقيدتهم ولكنه لم يكن ليتسامح مع من يرفض منهم المشاركة فى الطقوس الوثنية العامة، حيث أن زعماء المسيحية كانوا يغرون بقية رعايا الامبراطورية على ألا يبدوا التبجيل والتقديس للديانة الوثنية التى كانت العمود الفقرى للدولة[١٠٣]. وهذا الرأي متناقض لأن الامبراطور يعلم جيداً أنه إذا قام مسيحى بتلك الطقوس الوثنية فمعنى ذلك أنه ارتد عن مسيحيته ـ ولو ظاهرياً على الأقل ـ لأنه لا يمكن للفرد أن يجمع بين المسيحية والوثنية معاً؛ بمعنى أن إقامة هذه الطقوس الوثنية فى حد ذاتها معناه الارتداد عن المسيحية حتى ولو لم يذكر ذلك صراحةً. كما أن هذا الرأى يتناقض وأساليب التعذيب والاضطهاد للمسيحيين فى عصر ديكيوس كما شاهدنا فى رواية الأسقف يوسبيوس أعلاه عن تعذيب مسيحيى الإسكندرية وعن تعذيب أوريجين السكندرى فى «صور» أيام اضطهاد ديكيوس ووفاته بعدها بقليل سنة ٢٥٣م. وأعتبر أن أدق تصوير لاضطهاد ديكيوس هو عبارة لأحد الباحثين يصف فيها إجراءات ديكيوس ومرسومه بأنها «كانت شبكة ذات ثقوب دقيقة لا تسمح للمسيحيين بالإفلات منها، لأنهم إما أن يقاسوا ويتحملوا من أجل عقيدتهم أو أن يقدموا الأضحيات (للآلهة الوثنية) أو ـ على الأقل ـ أن يستصدروا شهادات تفيد بأنهم قدموا هذه الأضحيات»[١٠٤]. صحيح أن المرسوم كان يطبق على كافة سكان الامبراطورية ولكن كان من بين أهدافه الأساسية غير المباشرة كشف المسيحيين وتعقبهم.

أما عن الصيغة الشكلية لهذه الوثائق المسماة بـ libelli فقد كان يوجهها الشخص الذى يقوم بتقديم الأضحيات للآلهة الوثنية فى الأغلب الأعم إلى

«أعضاء اللجنة المسئولة عن الأضحيات» وهى لجان ذات طبيعة محلية أنشئت عقب إصدار مرسوم ديكيوس للإشراف على تنفيذه، ويبدو أن التعليمات المصاحبة للمرسوم لم تحدد عدد أعضاء هذه اللجان المحلية وتركت ذلك الأمر لمجالس المدن فى عواصم الأقاليم لتحديد عدد أعضاء هذه اللجان حسبما تقتضيه الظروف المحلية من منطقة لأخرى(١٠٥). وفى هذه الوثائق التى تأخذ شكل التماسات إلى هذه اللجان يذكر الشخص اسمه والقرية أو المنطقة التى ينتمى (أو تنتمى) إليها ثم يذكر ما يفيد بأنه «مواظب على الدوام على تقديم الأضحيات للآلهة وأنه يقوم الآن ـ حسب التعليمات وفى حضور اللجنة ـ بتقديم الأضحيات وسكب القرابين وتذوق لحوم الأضاحى»(١٠٦) ثم يطلب من أعضاء اللجنة التوقيع له أدناه بما يفيد قيامه بهذه الأمور. وفى بعض هذه الالتماسات نجد توقيع اللجنة وشهاداتها بقيام الشخص بالطقوس المطلوبة مرفقاً وبذلك تصبح شهادة معتمدة من الموظفين المنوط بهم ذلك، وأحياناً لا نجد هذه التوقيعات مرفقة مما يدل على أن الوثيقة التى وصلتنا ربما لم تكن هى الأصل الذى قدم لأعضاء اللجنة وإنما مجرد مسودة. من خلال هذا الشكل يمكن أن نتوقع أن الأفراد الذين كانوا على استعداد للقيام بهذه الطقوس الوثنية حسب مرسوم الامبراطور كانوا يعدون هذه الالتماسات سلفاً ويأخذونها معهم وهم فى طريقهم لأداء هذه الطقوس، وبمجرد قيامهم بها كانوا يأخذون عليها توقيع أعضاء اللجان وتصبح شهادة معتمدة رسمياً.

أما عن تصرف المسيحيين إزاء هذه المحنة فقد تفاوت إذ ارتد الكثيرون تحت وطأة هذا الاضطهاد وقاموا بالطقوس الوثنية المطلوبة مما قوض استقرار الكنيسة بصورة خطيرة، ومما يدل على كثرة مَنْ نفذوا هذه التعليمات الوثنية أنه حتى بعض غلاة الحركة المونتانية فى شمال أفريقيا (الذين كان ينتمى

إليهم ترتليان من قبل) قد ارتدوا ونفذوا ما نصّ عليه المرسوم الامبراطورى، وسعى البعض من المسيحيين إلى شراء مثل هذه الشهادات Libelli دون القيام بالطقوس الوثنية وذلك عن طريق رشوة الموظفين القائمين على أمر إصدار هذه الشهادات أو التوقيع عليها كما سبق أن رأينا وبذلك حصلوا على شهادات زائفة نفيد قيامهم بالطقوس الوثنية فأراحوا ضميرهم من الخطيئة وذنب الارتداد على حساب الغش والخديعة، وكان يطلق على المسيحيين الذين حصلوا على هذه الشهادات بهذه الطريقة مسمى libellatici. وبالإضافة لهؤلاء وأولئك كان هناك مَنْ ثبتوا على عقيدتهم وتحملوا أهوال السجن والتعذيب فى سبيلها واعترفوا بمسيحيتهم وأطلق عليهم فى الكنيسة لاحقاً مسمى «المعترفون Con-fessores» وهناك مَنْ صمدوا فلم يفروا ولم يقدموا الأضحيات للآلهة الوثنية وشاءت ظروفهم ألا يُحبسوا وأطلق عليهم «الصامدون Stantes».

وبعد أن خمد هذا الاضطهاد وخفت حدته فى خريف عام ٢٥٠م ولم تعد هناك فرصة لتكراره بعد مقتل ديكيوس عما ٢٥١م فى حربه ضد القوط بدأت بوادر أزمة وانشقاق فى الكنيسة بسبب اختلاف الآراء حول مَنْ ارتدوا من المسيحيين مؤقتاً أيام الاضطهاد ومَنْ ارتد شكلا بشراء شهادات الوثنية المزيفة وهل يجوز إعادتهم للكنيسة وللمسيحية بعد مواقفهم هذه أم يُطردون من الكنيسة ولا يسمح لهم بالعودة، حيث لا ينبغى أن يستوى من اعترفوا بمسيحيتهم وتحملوا السجن والتعذيب ومن صمدوا ولم يستجيبوا لهذا المرسوم الامبراطورى بمن ارتدوا عند الاختبار أو لجأوا للحيلة والرشوة لشراء شهادات وثنية مزيفة. كان هذا هو الرأى المتشدد داخل الكنيسة، أما الرأى المعتدل والإنسانى فكان أصحابه يرون أنه متى أثبت الشخص الذى ضعفت عزيمته أثناء الاضطهاد ندمه الخالص على ما فعل وفرط من أمره فينبغى السماح له

بالرجوع إلى حظيرة المسيحية والكنيسة. وقد انتصر أنصار التيار المعتدل ولكن على حساب انقسام وحدة الكنيسة، وكانت مسألة كيفية تعامل الكنيسة مع مَنْ يرتدُّون مِنَ المسيحيين فى عصور الاضطهاد (عصر ديكيوس ثم الاضطهاد الأكبر في عصر دقلديانوس فى أوائل القرن الرابع الميلادى) تكمن وراء انقسام الدوناتيين فى شمال أفريقيا كما كانت السبب الوحيد للانقسام الميليتى فى مصر(١٠٧) عقب الاضطهاد الأعظم لدقلديانوس. وسننتقل الآن للحديث عن هذا الانقسام الميليتى وظهوره فى الوثائق البردية.

الانقسام الميليتى:

- بعد انتهاء اضطهاد ديكيوس قام امبراطور آخر بإحياء مثل هذا الاضطهاد بصورة جادة وهو الامبراطور فاليريان (٢٥٣ - ٢٥٩/٢٥٨م) ولكن الضربة كانت موجهة هذه المرة إلى كبار رجال الكنيسة أى الأساقفة ربما ليصرف الانتباه عن الكوارث التى حلت بالعالم الرومانى فى عهده ولكى يفرض بالقوة الاعتراف بالديانة الرسمية للدولة كعلاج لهذه العلل. وربما كان قد آزر ديكيوس من قبل فى إجراءاته ضد المسيحيين فلما أصبح هو نفسه امبراطوراً أصدر مرسومين أولهما فى أغسطس عام ٢٥٧ وأمر بمقتضاه كبار رجال الكنيسة المسيحية بتقديم الأضحيات لآلهة الدولة، أما المرسوم الثانى الأشد والأقسى فقد صدر فى الشرق فى العام التالى ٢٥٨م وقام السناتو بتعميمه على حكام الولايات وهذا المرسوم جعل رجال الكهنوت المسيحى عرضة لعقوبة الإعدام وكان من بين من استشهد من جراء هذا المرسوم البابا سيكستوس الثانى وسان لأورينس الذين أحرقا حتى الموت فى روما؛ وكبريان الذى أعدم فى قرطاجة(١٠٨). وبعد ذلك حدثت كارثة غريبة لا تصدق حين وقع الامبراطور فاليريان نفسه فى أسر الملك الفارسى عام ٢٥٩/٢٥٨م وهو ما

اعتبره الوثنيون سوء حظ غير مفهوم فى حين نظر إليه المسيحيون باعتباره إشارة جلية للانتقام الإلهى ممن اضطهدهم(١٠٩).

واستمر فى حكم الامبراطورية بعد فاليريان ابنه وشريكه جالينوس الذى حكم معه منذ عام ٢٥٣ واستمر فى الحكم حتى عام ٢٦٨ م. ولكنه انقلب على سياسة أبيه فى اضطهاد المسيحيين لكى يضمن تأييدهم وتعاطفهم ـ وخصوصاً تجمعاتهم فى الشرق ـ ضد الملك الفارسى سابور(١١٠). وأصدر جالينوس فى هذا الصدد مرسوماً سمى «بمرسوم التسامح الأصغر» منح بمقتضاه المسيحيون سلاماً من نوع ما واستمر هذا السلام حتى اندلاع «الاضطهاد الأكبر» تحت حكم دقلديانوس فى ٢٣ فبراير من عام ٣٠٣م(١١١).

أما عن دقلديانوس وموقفه من المسيحية فيذكر أنه كان هناك مسيحيون بين خدمه بل أن زوجته وابنته كانتا مسيحيتين، ويذكر كذلك أنه أراد التقريب بين مفهوم المسيحية القائم على الاب والابن وبين الوثنية فجعل نفسه فى حمى جوبيتر كبير الآلهة «الآب» وسمى نفسه Jovius» أى المنتمى لجوبيتر وجعل شريكه فى حكم الامبراطورية فى الغرب الأغسطس ماكسيميان تحت حماية هيراكليس ابن جوبيتر «الابن» الذى أطلق عليه Heraclius أى المنتمى لهيراكليس» ، وظن أن هذا الوضع سيحظى بقبول المسيحيين الضمنى على الأقل. ولكن رغم ذلك كان للوثنية أنصار متعصبون يؤمنون بها ويلقون باللوم على الكنيسة فى كل مآسى روما والامبراطورية، وكان من أبرز هؤلاء جاليريوس مساعد دقلديانوس فى الشرق والذى كان يحمل لقب «قيصر» وهو أدنى مرتبة من لقب «أغسطس» الذى كان يحمله دقلديانوس نفسه. وقد بدأ الفأل السيء والنذير لاضطهاد المسيحيين عام ٢٩٦م حين بدأت عملية تطهير

الجيش والإدارة المدنية من المسيحيين ربما بإيعاز من القيصر جاليريوس. أما الاضطهاد العنيف فقد بدأ كما ذكرنا أعلاه عام ٣٠٣ ففى هذا العام شب حريق فى القصر الامبراطورى فى نيقوميديا ربما بتدبير من القيصر جاليريوس وأتباعه لتنفيذ مخططاتهم ضد المسيحية وألقيت التهمة على المسيحيين فانطلق الاضطهاد العنيف من عقاله على شاكلة اضطهاد ديكيوس وفاليريان ولكن بصورة أكثر عنفاً وشمولا إذ دمرت الكنائس وأحرقت الكتب المقدسة وتم احتجاز وسجن الأساقفة، وبدأ الاضطهاد من نيقوميديا ثم انتشر. وكان دقلديانوس نفسه ينوى أن ينأى بنفسه عن سفك الدماء ولكن أقعده عن ذلك انهيار عصبى لازمه بضعة أشهر فلما شفى منه كان الاضطهاد قد بلغ مداه واعتزل دقلديانوس وشريكه ماكسيميان الحكم سنة ٣٠٥م(١١٢).

وقد بلغ الاضطهاد ذروته فى الشرق أما فى الغرب فإن قنسطنطيوس خليفة ماكسيميان جعل هذا الاضطهاد فى حدود معينة(١١٣). وكان من جراء هذا الاضطهاد العنيف فى الشرق أن ارتد البعض مؤقتاً عن المسيحية تحت وطأة الاضطهاد كما حدث فى عهد ديكيوس وسمى هؤلاء المرتدون lapsi وحدث انشقاق بين رجال الكنيسة فى مصر بشأنهم، ولم يكن هذا الانشقاق عقائدياً أو مذهبياً وإنما اندلع فى أثناء «الاضطهاد الأكبر» فى عصر دقلديانوس سنة ٣٠٥م وكان محوره هؤلاء الذين ارتدوا عن المسيحية وكيفية معاملتهم بعد ذلك : إذ كان بطرس أسقف الإسكندرية يمثل التيار المعتدل بينما ميليتيوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط) كان يمثل التيار الأكثر تشدداً. والغريب أن أياً من الطرفين لم يقترح استبعاد هؤلاء المرتدين نهائياً من الكنيسة كما لم يفكر أى منهما فى السماح لهم بالعودة ثانية دون قيد أو شرط وإنما كان الخلاف بينهما ينصب فقط على الفترة التى يقون خلالها مستبعدين إلى

حين السماح لهم مرة أخرى بالعودة للكنيسة وعلى وضعهم بعد العودة. ورغم ذلك فإن إصرار كل طرف على رأيه جعل الخلاف ينتهي بانشقاق بين الطرفين رغم أنه لم يصل في أول الأمر إلى قطيعة نهائية في العلاقات. وفي أثناء الاضطهاد وفي عام ٣٠٦م حاول ميليتيوس أن يزيد من عدد أتباعه خارج نطاق أسقفيته في أسيوط حين كان عدد من الأساقفة في السجون ثم استشهدوا، وفي ذلك العام توجه ميليتيوس إلى الإسكندرية حيث كان بطرس مختبئاً فشرع ميليتيوس في عزل وحرمان عدد من القساوسة، ولكن بطرس كتب لرعيته أن يعتبروا ميليتيوس معزولا ومحروماً كنسياً. وفي تاريخ لاحق ألقى القبض على ميليتيوس ونفى مع عدد من أتباعه إلى مناجم فلسطين وظل هناك إلى أن أصدر جاليريوس مرسوماً بالتسامح مع المسيحيين عام ٣١١م بعدما أصيب بداء عضال وطلب من المسيحيين الدعاء له بالشفاء. ولكن سرعان ما تجدد الاضطهاد بمجرد وفاة جاليريوس على يد خليفته ماكسيمين دازا الذى كان من أول ضحاياه الأسقف السكندرى بطرس الذى استشهد في ٢٥ نوفمبر سنة ٣١١م. وقد استمرّ الانشقاق بين الفريقين حتى بين المنفيين في فلسطين حيث لم يكن هناك اتصالا بينهما وكان ميليتيوس يرسّم أساقفة وقساوسة من طائفته والتى حملت لقب «كنيسة الشهداء» . وبعد وفاة الأسقف بطرس فإن جماعة ميليتيوس حافظت على تنظيمها وإن كانت علاقتها بالفريق الآخر لم تكن فيما يبدو معادية تماماً تحت أسقفية خليفة بطرس وهو الإسكندر. وقد كان آريوس في أول الأمر من أتباع ميليتيوس ثم تصالح بعد ذلك مع الفريق المضاد له أى مع الجماعة الأرثوذكسية ثم أخذ يعلن هرطقته المخالفة في تفسيرها لطبيعة المسيح عن فكر المجموعة الأرثوذكسية. وفي مجمع نيقيا عام ٣٢٥م تم نفى وإدانة آريوس كما تم النظر

فى أمر الانشقاق الميليتى وتقرر أن يستمر ميليتيوس فى حمل لقب أسقف دون أ ن يباشر واجبات وظيفته وإن تم إعادة ترسيم من قام هو من قبل بترسيمهم ويحتفظون بدرجتهم الكهنوتية ومهامهم. ويبدو أن ميليتيوس وكذلك الإسكندر توفيا بعد مجمع نيقيا بقليل وتم اختيار خليفة لكل منهما فى جماعته فاختير أثناسيوس أسقفاً للإسكندرية وترك ميليتيوس خليفة له يدعى «يوحنا أرخاف John Archaph» واضطهد أثناسيوس جماعة ميليتيوس التى اعترضت على انتخابه وطعنت فى صلاحيته مما جعلها ترسل وفداً للامبراطور لتقديم مظالمها ولكن الامبراطور رفض استقبالهم فتحالفوا مع جماعة فى نيقوميديا من ذوى الميول الأريوسية وأثبت هذا التحالف جدواه وأدى فى النهاية إلى نفى أثناسيوس لأول مرة. وقد كان التحالف بين الميليتيين والأريوسيين سياسياً فى أول الأمر ثم تأثر الميليتيون بالأريوسية بمرور الوقت وأصبح الميليتيون أشبه ما يكونون بطائفة أريوسية، وبذلك استمر العداء بين الميليتيين والأثناسيوسيين(١١٤).

وهناك بعض الوثائق البردية التى تلقى الضوء على هذه الطائفة الميليتية المنشقة معاملاتها مع الأثناسيوسيين ومعاملات أفرادها بعضهم مع البعض وروح الأخوة التى تربطهم، وهذه المجموعة المكونة من عشر وثائق من بردى المتحف البريطانى نشرها السير هارولد إدريس بيل فى المجلد السادس للبردى اليونانى المعنون «اليهود والمسيحيون فى مصر» وهذه الوثائق العشرة (P. Lond. 1913-1922) سبعة منها باللغة اليونانية وثلاثة بالقبطية هى الوثائق الثلاثة الأخيرة منها، وتاريخ هذه المجموعة من الوثائق يقع فى الفترة ما بين ٣٣٠-٣٤٠م(١١٥).

وسنورد فيما يلى نماذج من هذه الوثائق لإيضاح صورة هذا الانشقاق الميليتى وسنبدأ بوثيقة يعتبرها ناشرها السير هـ. إدريس بيل أنها أهم وثائق

الأرشيف بأكمله من الناحية التاريخية وربما ترقى حقيقةً إلى أن تكون من المصادر الأولية للتاريخ الكنسى فى مصر فى القرن الرابع الميلادى. هذه الوثيقة هى عبارة عن خطاب كتبه شخص يدعى كاليستوس وهو بلا شك أحد الرهبان الميليتين وقد كتبه من الإسكندرية إلى شخص يدعى بايبوس ـ الذى وجهت إليه معظم خطابات هذه المجموعة ـ ويسبق اسمه لقب «أبا» بمعنى قسيس أو كاهن والذى من الواضح أنه كان زعيماً لطائفة ميليتية كبيرة فى إحدى مناطق مصر الوسطى بين الأشمونيين وأسيوط والتى ربما كانت على الأرجح منطقة كينوبوليس[١١٦] (وهى منطقة الشيخ فضل المواجهة لبنى مزار فى محافظة المنيا الحالية) [١١٧]. وفى هذا الخطاب يروى كاليستوس أوجه المعاناة والعذاب التى لحقت به وبرفاقه الميليتيين على أيدى أثناسيوس وأتباعه[١١٨]. ولندع الآن كاليستوس يتحدث فى خطابه إلى بايبوس:

«إلى أخى الحبيب أبا بايبوس وباتابيت القساوسة، تحية فى الرب المهيمن من كاليستوس، نود أن نحيطكم علماً بما حدث هنا حيث أنكم سمعتم فى حينه بما عانيناه فى تلك الليلة فى منزل هيراكليوس المُسجِّل، لأنه كان هناك بعض الأخوة الذين أتوا إليكم ممن كانوا معنا فى المنزل وبوسعهم أن يخبروكم بما حدث. فبعد ذلك اليوم وفى الرابع والعشرين من باخون وصل إسحاق أسقف ليتوبوليس (أوسيم) إلى هيراسكيوس فى الإسكندرية وأراد أن يتناول العشاء مع الأسقف فى المعسكر. ولذلك فعندما علم أتباع (أنصار) أثناسيوس أتوا ومعهم جند القائد والمعسكر الذين أتوا وهم فى حالة سُكر فى الساعة التاسعة مساء بعد أغلقوا المعسكر وأرادوا إلقاء القبض عليه وعلى الأخوة. وعندما علم بعض جند المعسكر ممن يخشون الربَّ بالأمر أخذوهم وأخفوهم فى مخازن المعسكر. وعندما لم يتم العثور عليهم انصرف الجند ولكنهم وجدوا

أربعة من الأخوة فى طريقهم إلى المعسكر فضربوهم ضرباً مبرحاً وأسالوا منهم الدماء حتى كادوا يهلكون وطردوهم خارج نيكوبوليس (مقر المعسكر فى الإسكندرية). وبعد انصرافهم (الجند) غادروا إلى بوابة الشمس إلى فندق كان ينزل به الأخوة وألقوا القبض على خمسة آخرين منهم هناك وحبسوهم فى المعسكر فى المساء واحتجزوهم حتى مجىء البرايبوزيتوس (أحد كبار موظفى الإدارة فى مصر فى العصر البيزنطى) إلى حجرة الحراسة قرب الصباح، وتسلمهم البرايبوزتيوس والكاتب وأمر بطردهم خارج نيكوبوليس، أما صاحب النُزل فقد أوثقوه وأهانوه وأصدروا إليه الأوامر وهددوه قائلين «ما السبب الذى دعاك للسماح للرهبان الميليتيين بالإقامة فى النُزل: κατὰ ποίαν ἐτίαν τοὺς μ[ο]ναχοὺς τῶν Μελιτιανῶν ἡμᾶς ἐν τῇ κώμῃ;

وهناك أخ آخر هو آمون كان فى المعسكر وكان يقوم على استقبال الأخوة فحبسوه فى المعسكر ومنعوه من استقبال رهبان فى منزله، ولم يكن هناك من أخ آخر يستقبل الأخوة سوى هذين الأخوين فجعلوهما يصرفان النظر ويجبنان، ولذلك فإننا نعانى معاناة شديدة حيث شتتونا فى كل مكان، وما يحزننا أنهم لا يسمحون لنا بالذهاب إلى «البابا» هيرايسكوس وزيارته. وفى الليلة التى أهين فيها الأخوة فإن برايبوزيتوس الجند أرسل تقريراً إلى الأسقف يقول فيه «لقدارتكبت اثماً وكنت مخموراً فى الليل مما جعلنى أهين الأخوة» وأقام صلاة محبة ἐποίησεν δὲ καὶ ἀγάπην فى ذلك اليوم ـ رغم أنه أغريقى تكفيراً عن الإثم الذى اقترفه.

إن أثناسيوس محبط إحباطاً شديداً وهو من جانبه يتسبب فى شقائنا ومحنتنا بسبب ما يتلقاه من تقارير وكتابات تأتى إليه من الخارج، إذ أن الامبراطور وجد ماكاريوس فى الخارج فى البلاط (ثم سطرين مهشمين تقريباً) وقد رحل أرخيلاوس ابن... و... مع أثناسيوس بن كابيتون وهم ينوون أن يلقوا

القبض على مكاريوس ووصل هذا التقرير إلى أبا يوانيس فى أنطاكية فأتى وألقى القبض عليهم واحتجزهم لأنهم «كتبوا قذفًا وتشويهاً لسمعة هيرايسكوس».
ἐπιδὴ ἐπὶ συκοφαντία καὶ δινὰ ὕσαν
γράψαντες κατὰ Ἡραείσκου (ll. 35-36)

وقام أرخيلاوس بنقل هذه الكتابات للخارج. إن الربّ هو الذى أرسل بهم للخارج وأبقاهم فى الخارج. وهكذا استمع أثناسيوس لهذه الأخبار وهى إلقاء القبض على أرخيلاوس وشعر بإحباط شديد، وكانوا يأتون إليه كثيراً ولكنه لم يغادر البلاد حتى الآن ولكنه نقل أمتعته إلى البحر (إلى السفن) كما لو كان على وشك الرحيل ثم عاد وأعاد الأمتعة من السفينة مرة ثانية ولم يشأ أن يغادر البلاد. أننى أكتب إليك حتى تعلم مدى ما نحن فيه من معاناة إذ قام (أثناسيوس) باحتجاز أسقف من الوجه البحرى وحبسه فى سوق اللحوم وقسيس من نفس المنطقة وحبسه فى المحبس (المخفر) وشماس فى السجن المركزى. وحتى الثامن والعشرين من باخون كان هيرايسكوس لا يزال محتجزاً فى المعسكر ولكن شكراً للربّ أنهم كفوا عن ضربه وإيذائه، وفى يوم السابع والعشرين (من باخون) قام (أثناسيوس) بترحيل سبعة من الأساقفة خارج البلاد، من بينهم إيميس وبطرس بن توبيستيس.

لذلك لا تنسونا أيها الأخوة إذ أنهم تركوا الخبز وراءهم حتى لا يؤخذ للخارج وذلك من أجل الأسقف حتى يظل الخبز معه (وهى فقرة صعبة تستعصى على الفهم الدقيق والترجمة الصحيحة كما يلاحظ هـ. إ. بيل فى ملحوظاته على هذه الأسطر ٤٨ – ٥٠) فعندما اشتريت أرغفة لغذائنا اشتريت أردب القمح بأربعة عشر تالنتاً، لذلك فإن وجدتم الشخص الملائم فابعثوه إلىّ سريعاً بقليل من الخبز...»(١١٩).

الأسطر المتبقية من هذا الخطاب من ٥٢ - ٦٣ عبارة عن تحيات مرسلة للأخوة والرفاق المقيمين مع وبالقرب من أبا بايبوس.

من خلال هذا الخطاب ندرك مجموعة من الحقائق حول هذه الطائفة الميليتية المنشقة عن الكنيسة فى مصر والتى كان أسقفها (أسقف الكنيسة المصرية) فى ذلك الحين أثناسيوس أسقف الإسكندرية الذى انتصر فى صراعه ضد المذهب الأريوسى بنفى أريوس بعد مجمع نيقيا سنة ٣٢٥م.

يتبين لنا من خلال هذا الخطاب البالغ الأهمية أن أفراد الطائفة الميلتية المناوئة لتيار الكنيسة الأرثوذكسية العام كانوا يذهبون من أسقفياتهم فى مصر الوسطى - حيث كان أغلب تركزهم بحكم أن ميليتيوس كان أصلا أسقف أسيوط كما رأينا - إلى الإسكندرية سراً كما يتضح من لهجة الخطاب وكانوا يرتادون أماكن معينة كان لهم فيها أنصار يعتنقون فكرهم ويأوونهم ويعقدون الاجتماعات عندهم، ومن بين هذه الأماكن المعسكر الرومانى فى نيكوبوليس الذى كان لهم فيه صديق يدعى آمون كان يستقبلهم فى المعسكر وفى منزله والنُزل القريب من بوابة الشمس وصاحبه هيراكليديس الذى كان ينزلهم ويأويهم عنده. ويبدو أن أتباع أثناسيوس كانوا يرصدون خطوات هؤلاء الرهبان الميلتيين ويعرفونهم حيث داهموهم فى المعسكر والنزل وألقوا القبض على عدد منهم وانهالوا عليهم بالضرب المبرح واعتقلوهم فى المعسكر لبعض الوقت وأمروا بطردهم بحيث لم يعد للرهبان الميليتيين من مكان يجتمعون فيه سراً فأصبحوا يختبئون فرادى فى أماكن معينة ويرسلون من مخابئهم تلك التقارير لإخوانهم فى مصر الوسطى عن الأوضاع حول الصراع المذهبى فى الإسكندرية مثل هذا التقرير من كاليستوس، وواضح من الخطاب كذلك الإهانة والأذى والإرهاب الذى تعرض له من يأوى هولاء الرهبان الميليتيين على أيدى أنصار

أثناسيوس بحيث لم يعودوا يجرؤون على ذلك.

إن تاريخ هذا الخطاب كما يرجحه ناشر هذه الوثيقة السير هارولد إ. بيل هو فى أواخر مايو أو أوائل يونيو من عام ٣٣٥م. أى قبيل مغادرة أثناسيوس الإسكندرية فى ١١ يوليو سنة ٣٣٥ لحضور مجمع صور المسكونى الذى نفى بعده أثناسيوس لأول مرة وعاد من المنفى فى ٢٣ نوفمبر سنة ٣٣٧ م.

ولإيضاح الوضع الذى تشير إليه الوثيقة فقد سبق أن ذكرنا أنه حدث تحالف بين جماعة أريوسية فى نيقوميديا يسمون الـ «يوسبيون» وبين الميليتيين فى حوالى أواخر عام ٣٣٠م وبالتالى أصبحوا مناوئين بصورة واضحة لكنيسة الإسكندرية الأرثوذكسية التى يترأسها أثناسيوس. وفى أواخر عام ٣٣١م وجهت اتهامات لأثناسيوس تتصل بسوء معاملته للميليتيين واستدعى إلى البلاط الإمبراطورى فى هذا الصدد ولم يعد للإسكندرية إلا بعد عيد الفصح عام ٣٣٢م بعد أن برئت ساحته ودعم الإمبراطور موقفه بخطاب منه. عقب ذلك يبدو أن أثناسيوس وجد أن موقفه قد تدعم وأن هذه فرصة مناسبة لتسوية الحساب مع الميليتيين المناوئين له فى مصر بعد أن لاحظ أنهم بدأوا يشكلون خطراً عليه [١٢٠].

إن هيرايسكوس الذى ذكر مراراً فى الوثيقة وكان الميليتيون على اتصال وثيق به سراً وكان يلتقونه فى المعسكر إلى أن اكتشف أمرهم يبدو أنه كان زعيم المعارضة الميليتية فى الإسكندرية وكان يتمتع بأهمية كبيرة حتى خارج مصر، ورأيناه فى الوثيقة وقد أطلق عليه لقب «بابا» ربما من وجهة نظر الميليتيين الذين ربما نصّبوه كـ «بابا» مضاد لأثناسيوس وإن كان ذلك أمراً مشكوكاً فيه لعدم وجود ما يدعمه فى كتابات أثناسيوس أو المؤرخين

الكنسيين[١٢١]. ومما يدل على مدى أهمية هذا الرجل أن ثلاثة من أتباع أثناسيوس قد ألقى القبض عليهم فى أنطاكية لأنهم روجوا كتابات فيها طعن وقدح وتشويه لهذا الرجل، وهو أمر أصاب أثناسيوس بإحباط شديد وجعله يمعن فى اضطهاد الأساقفة الميليتيين ويسجنهم ويطرد سبعة منهم كما رأينا فى الوثيقة.

هذا الموقف برمته يشير إلى إرهاصات لحدث كبير : فالحرب الخفية دائرة على أشدها بين الميليتيين (مع حلفائهم الأريوسيين) من جانب والأثناسيوسيين من جانب آخر، فقد رأينا فى الوثيقة كيف كان الميليتيون يبثون عيونهم فى الإسكندرية للتلصص على أخبار خصومهم وخططهم والاستفادة من الموقف بتفكير مضاد وكيف كان الأثناسيوسيون فى المقابل يرصدون تحركاتهم السرية ويقمعونها ويضيقون الخناق عليها ويحاولون تشويه صورة الميلتيين خارج مصر. ولكن اتضح أن كفة الميليتيين كانت تميل إلى الرجحان حيث ألقى القبض فى أنطاكية على ثلاثة من أنصار أثناسيوس كما رأينا فى الفقرة السابقة مما أصابه بإحباط وارتباك. ويبدو أن هذا الموقف جعل الامبراطور يستاء من تصرفات أثناسيوس ويرسل له لحضور مجمع صور فى شهر يوليو سنة ٣٣٥م ربما لمسائلته فى المخالفات المنسوبة إليه وكانت ترد إليه تقارير مكتوبة من الخارج من أنصاره وواضح أنها نقلت إليه هذه الأخبار غير السارة وانعكس ذلك بالسلب على تصرفاته مع الميليتيين فى الإسكندرية كما رأينا فى سطرى ٢٩ ، ٣٠ من خطاب كاليستوس إلى أبا بايوس. ونتيجة لهذا الجو المضاد لأثناسيوس والذى استشعره من التقارير الواردة إليه من الخارج تردد فى قبول دعوة الامبراطور لحضور مجمع صور سنة ٣٣٥م وهى الحدث الكبير الذى أشرنا إليه فى بداية الفقرة إذ ربما توجس شراً من نتائجه، وتعكس الوثيقة هذا التردد

والاضطراب فى قرار أثناسيوس فى حضور هذا المجمع فبعد أن حمّل السفينة بأمتعته للتوجه إلى هناك أعاد هذه الأمتعة مرة أخرى ولم يشأ أن يغادر البلاد كما نعلم من هذه الوثيقة (أسطر ٣٩ - ٤١). هذا الموقف ليس بجديد على أثناسيوس الذى رفض من قبل حضور مجمع قيصرية فى فبراير أو أوائل مارس سنة ٣٣٤ على أساس أن المجمع كان متحيزاً[١٢٢]. إن خصوم أثناسيوس يصورونه على أنه رجل عنيد متشبث برأيه صعب المراس وأنه كان يعامل حتى السلطة الامبراطورية باحتقار[١٢٣]، ولكن يبدو هذه المرة أن الضغط كان شديداً على أثناسيوس فاضطر فى نهاية الأمر إلى حضور ذلك المجمع الذى كان يتوجس منه وبالفعل وقع المحظور ونفى أثناسيوس عقب هذا المجمع حتى ٢٣ نوفمبر سنة ٣٣٧م وهو النفى الأول له، وبذلك حقق الميليتيون وحلفاؤهم الأريوسيون انتصاراً جزئياً على خصومهم من الأثناسيوسيين وعلى شخص أثناسيوس نفسه.

أخيراً يمكن القول أن هذا الخطاب الوثيقة الذى تناولنا أعلاه يكتسب أهمية وطرافة كبرى من الناحية التاريخية لكونه يلقى ضوءاً جديداً على الأحداث التى سبقت مجمع صور سنة ٣٣٥م وتزداد قيمته أكثر لأنه يأتى من الطرف الميليتى الذى يعطينا الجانب الآخر من الصورة لأن المصادر الأدبية لتلك الفترة تعبر أساساً عن وجهة نظر المنتصر وهم الأثناسيوسيين[١٢٤].

وهناك وثيقة أخرى من هذه الوثائق الميليتية تلقى الضوء على حياة المجتمع المسيحى - والطائفة الميليتية خصوصاً - وتبرز إحساس الأخوة الذى كان قوياً بينهم كما تبرز تحقيق واجب التراحم والتكافل بينهم فى أكمل صورة، كما تلقى الضوء من جهة أخرى على الأوضاع الاقتصادية القاسية التى كانت تعانى منها الطبقة المتوسطة فى مصر. هذه الوثيقة هى عبارة عن

خطاب من شخص يدعى هيريوس إلى بابيوس ـ الأسقف الذى رأيناه فى الوثيقة السابقة والذى كان الخطاب أيضاً موجهاً إليه ـ ويتحدث كاتب هذا الخطاب عن شخص من الطائفة الميليتية مرّ بضائقة مالية شديدة واضطر للاستدانة وعجز عن السداد واضطر لبيع أثاث منزله ورهن أطفاله الصغار، وهذا الخطاب دعوة موجهة لأفراد الطائفة الميليتية لمساعدته حسب طاقتهم. وها هو نص الخطاب:

«إلى أخي بابيوس من هيريوس أحييك بتحية الرب. إن الرب يحضنا على تقديم العون لمن يقعون فى ضائقة وخصوصاً لإخواننا. ولما كان أخونا بامونثيوس قد وقع فى براثن تقلبات عامة غير مواتية وذاق الأمرين بصورة مخجلة للغاية على أيدى أناس لا يرحمون ولا يعرفون الرب حتى أنه يمكن القول أن ضغط الظروف قد حرمه من أملنا المبارك، ولهذا السبب توسل إلينا أن نتوجه لجماعة الأخوة من بيننا بهذه الرسائل موضحاً وضعه بالتفصيل حتى يمكن أن تتعرفوا على ما حلّ به وتتذكروا أمر المبعوث المبارك بعدم إهمال الضعفاء ليس فقط فى العقيدة وإنما كذلك فى الشئون الدنيوية. لقد كان أخونا هذا فى السابق بائع نبيذ فألحف عليه الموظفون (الماليون) فى موطنه وفرضوا عليه التزامات فوق طاقته ولذلك اقترض مبلغاً كبيراً من المال. ولما طالبه الدائنون ولم يتمكن من الوفاء بدينه اضطره الدائنون إلى أن يبيع كل ما يملك حتى الملابس التى تستر عورته، وبعد أن باع هذه الأشياء تمكن من سداد نصف المبلغ المستحق لدائنيه فقام هؤلاء الغلاظ الكفرة بانتزاع كل أولاده الذين كانوا فى طفولتهم المبكرة. ولذلك نبعث إليكم بهذا الخطاب ونطلب منكم معاونته قدر طاقتكم حتى يستردهم منهم و(بذلك تكونون؟) أبناء أبينا الذى فى السماء ... ساعدوه بكل ما أوتيتم.. ساعدوا هذا الأخ لأنهم انتزعوا

منه أولاده واسترقوهم. لذلك لا تهملوا الأمر، برجاء التصرف بسرعة وبكل وسيلة»(١٢٥).

محاكمة الأسقف فيلياس:

إذا كان الموضوع السابق تناوله حول الانشقاق الميليتى يعد أحد الأمور التى ترتبت على الاضطهاد الأعظم الذى حدث فى عهد دقلديانوس بمعنى أنه كان أحد نتائجه، وإذا كان ميليتيوس قد تسبب فى انشقاقه هو ومن معه عن الكنيسة بسبب تشدده مع من ارتد من المسيحيين أمام ضراوة الاضطهاد فى حين كان بطرس أسقف الإسكندرية أقل تشدداً معهم، فينبغى أن نتعرف على نماذج من الصامدين المعترفين بمسيحيتهم Confessores ὁμολογηταί الذين لقى الكثير منهم حتفهم دفاعاً عن العقيدة المسيحية ولم يضعفوا أمام التهديد والوعيد والموت. ربما كانت هذه الأمثلة الرائعة فى الذود عن العقيدة بالحياة ذاتها هى التى جعلت أسقفاً مثل ميليتيوس يتشدد مع من لانوا وضعفوا وارتدوا لبعض الوقت زمن الاضطهاد ولم يتقبل أن يتساوى هؤلاء فى نهاية المطاف أو حتى يقتربوا من مكانة من صمدوا وتحملوا قسوة الاضطهاد وبطشه سواء من لقى منهم حتفه أو من ظل على قيد الحياة.

من هذه الأمثلة الصلبة التى لم تلن لها قناة أمام الاضطهاد فى مصر الأسقف فيلياس أسقف ثمويس فى مصر (تسمى الأمديد فى الدقهلية؟ حالياً) الذى استدعى للمحاكمة خمس مرات لقى بعدها حتفه. وقبل أن يستشهد تعرض لمساءلة فى المسيحية من جانب الوالى فى الإسكندرية «كولكيانوس» الذى حاول بكل سبل النقاش والتهديد والوعيد إثناء فيلياس عن العقيدة المسيحية وجعله يقدم الأضحيات للآلهة الوثنية ولكن دون جدوى فأمر بإعدامه وأعدم فيلياس بين أوائل عام ٣٠٤م وشتاء عام ٣٠٦/٣٠٧م. وهناك

وثيقتان برديتان كتبتا بعد خمسين عاماً من استشهاده أى احتفظت بها ذاكرة بعض معاصريه من الأحياء.

الوثيقة الأولى نشرها ف. مارتن وهى من بردى بودمر

V. Martin, Papyrus Bodmer xx. l'Apologie de Phileas, eveque de Thmouis (Cologne/ Geneva, 1964)

وبعد وقت قصير ظهر عمل آخر عن فيلياس تفوق على عمل مارتن وهى وثيقة بردية أخرى فى مجموعة شيستر بيتى نشرها العالم بيترسما:

A. Pietersma, The Acts of Phileas, Bishop of Thmouis. P. Chester Beaty xv.

وبالإضافة لنشره للوثيقة الجديدة أعاد بيترسما نشر الوثيقة التى سبق لمارتن أن نشرها. والترجمة التالية هى ترجمة لنص P. Bodmer xx الذى أعاد بيترسما نشره واختلف فى بعض قراءاته مع النشر الأول للوثيقة editio princeps الذى قام به مارتن(١٢٦).

«الدفاع الذى قام به فيلياس أسقف ثمويس، وأرخون الإسكندرية (المقصود دفاع كل من فيلياس والوالى فى الإسكندرية كل منهما عن وجهة نظره أو بالأحرى رد فيلياس على تساؤلات والى الإسكندرية) حينما أوتى به إلى المحكمة للمرة الخامسة، وبعدها لقى حتفه. ففى دفاعه الأول وجه إليه قدر كبير من السباب على أيدى الهيجيمون (أى الوالى) وقدر كثير من الصياح، وشد الرجال القائمون على التعذيب (actionarii) جسده على مخلعة (أداة تعذيب قديمة) مثبتة على أربعة خوازيق عدة مرات ثم ألقوه فى سجن

ثمويس لمدة يومين. ثم طافوا به وهو حافى القدمين وفى الأغلال حيث ذهب فى رحلة طويلة إلى الإسكندرية وألقى به فى السجن وأحضر أمام المحكمة، ورغام الإهانات التى وجهت إليه والضربات لم يتزحزح عن موقفه. وكذلك كان الحال فى الاستجوابين الثالث والرابع، فبعد العديد من الإهانات والصفعات قيل لفيلياس «لقد قتلت الكثير من الناس لأنك لم تقدم الأضحيات، وأنقذ بيريوس الكثيرين حين أذعن» وحين استدعى للمرة الخامسة مع جماعة القساوسة الذين كانوا معه وعددهم عشرين تولى الوالى مساءلة فيلياس «ألا يمكن أن تكون متعقلا فى نهاية المطاف ؟» فقال فيلياس «إننى متعقل على الدوام وأدرب نفسى على التعقل» فقال الوالى «فلتقدم الأضحيات» ورد فيلياس «لن أقدم أضحيات»، قال كولكيانوس (... عمودان مفقودان من النص) «إن التضحية تتم فى أورشليم فقط. والآن كذلك فإن اليهود ينتهكون القانون حين يقيمون شعائرهم ويحتفلون بها فى مكان أجنبى»، قال كولكيانوس «أى نوع من الأضحيات يتطلبها الرب إذن؟»، قال فيلياس «قلب نظيف وروح طاهرة وحواس تجلب للمرء أفعالا تتسم بالورع والعدل، وفى سبيلها سوف يثاب كل فرد»، قال كولكيانوس «هل نحن بذلك نبدى اهتماماً بالروح؟»، قال فيلياس «بالروح والجسد»، قال كولكيانوس» لماذا ؟، رد فيلياس، لقد قلت (أننا نفعل ذلك لكى نحصل على المكافأة والثواب من أعلى إذا أحسسننا»، قال كولكيانوس «الروح وحدها أم الجسد أيضاً ؟»، فيلياس «الروح والجسد»، كولكيانوس «هذا الجسد ؟»، فيلياس «نعم، كولكيانوس» هذا الجسد سوف يبعث ثانية؟ قالها وهو مشدوه ثم كررها مرة أخرى «هذا الجسد سوف ينهض ثانية؟»، قال فيلياس «هذا الجسد (اللحم البشرى) سوف ينهض مرة أخرى... بين الخطائين (؟)... عذاب أبدى أو...

الخير. والحياة الأبدية»، قال كولكيانوس «انج بنفقسك وكل فرد من شعبك وقدم الأضحيات»، قال فيلياس «إننى أنجو بنفسى وكل من ينتمون إلىّ حين لا أقدم الأضحيات»، قال كولكيانوس «وبولس ألم يرتد؟»، قال فيلياس «لا بالتأكيد!»، كولكيانوس «من هو الشخص الذى ارتد؟»، فيلياس «أرفض القول»، كولكيانوس» إننى استحلفك : هل كان بولس هو الذى ارتد؟»، فيلياس «بالتأكيد لا، إن رسول الرب لم يرتد »، كولكيانوس «لقد أقسمت فلتقسم أنتِ أيضاً!، فيلياس «لا يحق لنا أن نقسم لأن الكتاب السماوى المقدس يقول (إن قلت نعم فلتكن نعم وإن قلت لا فلتكن لا)»، كولكيانوس «ألم تقسم يميناً على الإطلاق إذن؟»، فيلياس «لا ولو كنت فعلت لأثمت»، كولكيانوس «حسناً فلتأثم الآن»، فيلياس «هناك فروق بين الآثام»، كولكيانوس «هل كان يسوع إلهاً؟»، فيلياس «نعم»، كولكيانوس «حسناً إذن كيف لم يقل عن نفسه أنه إله؟»، فيلياس «لأنه ليس بحاجة إلى هذه البينة لأنه يؤدى أعمال الرب بقدرة متمكنة» كولكيانوس «ماذا فعل؟»، فيلياس «لقد طهّر المجذومين وجعل العميان يبصرون والصم يسمعون والعجزة يسيرون والبكم ينطقون والضعفاء المهزولين يصحون. لقد طرد الشياطين من المخلوقات بأمره، وجعل المشلولين يستردون عافيتهم وأعاد الموتى إلى الحياة وقام بعدد كبير من الإيماءات والمعجزات»، كولكيانوس «ولكن كيف يكون إلهاً ثم يصلب؟»، فيلياس «إنه كان يعلم أن... وأنه سوف يجلد ويضرب ويهان، وارتدى تاجاً من الأشواك وتحمل المعاناة فى صبر وجلد، كما قدم بذلك نموذجاً لخلاصنا وقدم نفسه لذلك عمداً من أجلنا.، وهذه الأمور قائمة وموجودة فى الكتاب المقدس الذى يعتمد عليه اليهود : لقد تنبأوا بقدومه و .»، كولكيانوس «وهل كان بولس إلهاً ؟»، فيلياس «لا» كولكيانوس

«حسناً إذن من كان هو؟» ، فيلياس «إنه كان أول من نادى بالعدل بين البشر، فقد كانت فيه روح الرب كقوى ربانية. لقد كان على علاقة طيبة بالقوة الإلهية والروح» ، «ألم يكن شخصاً غير متعلم ويتحدث الآرامية ؟» فيلياس «لقد كان يهودياً وكان أول الرسل وتحدث الإغريقية وكان أول الإغريق» ، كولكيانوس «ألم يكن شخصاً قليل الخبرة ؟ إنه لم يكن بالتأكيد من عينة أفلاطون ؟» ، فيلياس «لقد فاق أفلاطون، إذ لم يكن أكثر فلسفة وحكمة من أفلاطون بل أيضاً من كل الفلاسفة، كما أنه أقنع كل البشر وإن شئت أخبرتك بكلماته» ، كولكيانوس «فلتقدم الأضحيات الآن فى نهاية الأمر» ، فيلياس «لا أضحى ولن أفعل ذلك مطلقاً» ، كولكيانوس «هل لك ضمير؟» ، فيلياس «نعم» ، ثم كررها ثانية «هل لديك ضمير؟» ، فيلياس «لقد قلت نعم» ، كولكيانوس» لماذا لا تجعل ضميرك متيقظاً فيما يتصل بأطفالك وزوجتك وإخوانك ؟» ، فيلياس «لأن ضميرى نحو الرب أكثر أهمية وله الأولوية على كل ما عداه. إن الكتاب المقدس يقول:

«لسوف تحب الرب الذى خلقك» ، كولكيانوس «أى رب ؟» ، فيلياس رافعاً يديه نحو السماء «الرب الذى خلق السماء والأرض والبحار وكل ما فيهم، هو الخالق الذى لا يرى، ولا يمكن التعبير عنه، المعصوم من الخطأ والزلل، الراسخ، الذى لا يحيط به أحد، الذى تخدمه وتخضع له جميع الكائنات والمخلوقات سواء فى السموات أو على الأرض أو تحت الأرض... لأنه هو نفسه الحاكم الأوحد لكل شيء وليس هناك حاكم سواه» ، وقال المحامون لفيلياس وهو يتحدث «لا تقف فى وجه الوالى فى أى أمر آخر» ، فقال فيلياس «إننى أجيب عما يسألنى عنه» ، فقال له المحامون «انظر إلى... و... عمودان مفقودان من النص» ، كولكيانوس «إن ما أفعله هو فضل أسديه إلى أخيك وعليك أنت أن تسدى هذا الجميل والمعروف إلىّ» ، فيلياس «إننى أطلب هذا

الصنيع والمعروف الأخير : استخدم قسوتك وأفعل ما تؤمر به» ، كولكيانوس «إذا ما كنت أحد الجهلة الذين أسلموا أنفسهم بسبب فاقتهم لما كنت قد صبرت عليك. ولكن بما أنك تملك وفرة كافية لترعى وتتكفل ليس بنفسك فقط وإنما بمدينة بأكملها، ولهذا السبب عليك أن تنجو بنفسك وتقدم الأضحيات» ، فيلياس «لن أقدم أضحيات» ، وقال المحامون الذين كانوا موجودين «لقد قدم أضحيات فى غرفة المجلس» ، فقال فيلياس «لم أقدم أضحيات، وإن كنت قد قدمت أضحيات فعلى الوالى أن يقول ذلك» ، وعندما لم يصبح بالإمكان تحويله أو زحزحته عن موقفه فإن المحامين وكل هيئة المحكمة مع اللوجيستيس (موظف قضائى) طلبوا من الوالى منحه وقتاً للتفكير وتدبر الأمر، فقال كولكيانوس «هل تريد منى أن أمنحك وقتاً للتفكير؟» ، فيلياس «لقد تدبرت الأمر مراراً وهذا هو ما اخترته». وعند ذلك فإن المحامين والمحكمة واللوجيستيس طلبوا من فيلياس المبارك وحاولوا إقناعه بأن يذعن لما أمر به. ولما لم يتحول عن موقفه بدأوا يسبونه ويكدرونه حتى يفكر فى الأمر والسلام على كل القديسين[١٢٧].

الرهبنة فى مصر :

هناك وثيقة بردية طريفة من قرية كرانيس بالفيوم تشير إلى موضوع الرهبنة فى مصر. وتتمثل طرافة هذه الوثيقة فى كونها أقدم وثيقة بردية يظهر فيها «راهب μοναχός» بصفة مألوفة معترف بها فى مجتمع القرية المصرية، وتزداد طرافة هذه المعلومة حين ندرك أن هذه الوثيقة لا تتحدث عن أمور دينية أو كهنوتية وإنما هى التماس مقدم من شخص يدعى «أوريليوس إيزيدوروس (أوريليوس ليس اسماً وإنما كنية كانت تعطى للأفراد الذين أصبحوا مواطنين رومان بمقتضى قانون كاركللا سنة ٢١٢م بمنح المواطنة الرومانية لكل سكان

الإمبراطورية الرومانية ما عدا المستسلمين) . فى هذا الالتماس الذى يرفعه إيزيدوروس إلى أحد موظفى الإدارة البيزنطية المبكرة فى المنطقة التى تتبعها قرية كرانيس يشكو إيزيدوروس من أن بقرة جيرانه قد اتلفت مزروعاته فأمسك بها وتوجه بها من حقله نحو القرية ولكن فى الطريق شاهده أصحاب البقرة فطرحوه أرضاً وأنهالوا عليه بهراوة غليظة وأشبعوه ضرباً حتى كاد يموت لولا أن تصادف مرور الشماس أنطونينوس والراهب اسحاق اللذين أنقذاه من براثن جيرانه (١٢٨) .

وقد تناول العالم E.A. Judge هذه الوثيقة وعلق عليها وتناول أصول الرهبنة فى مصر فى مقالة قيمة(١٢٩) لمن يرغب فى المزيد من التفاصيل عن الموضوع.

إن ذكر أنطونينوس الشماس هنا يعد أقدم ذكر لشماس فى وثيقة بردية رسمية تصور الحياة العامة فى القرى المصرية وسيتلو هذه الوثيقة المؤرخة بالسادس من يونيو سنة ٣٢٤م. وثائق أخرى تذكر هؤلاء الشمامسة ΔΙΑΚΟΝΈΣ حتى منتصف ذلك القرن. ومن مجموع هذه الوثائق سيتضح أن هؤلاء الشمامسة كانوا شخصيات بارزة ونشيطة ومؤثرة فى شئون القرية. وأنطونينوس الشماس المذكور فى وثيقتنا هذه هو المثال الوحيد بين هؤلاء الشمامسة الذى يذكره شخص لا علاقة له بالكنيسة، وذكره بهذه الطريقة فى شكوى لأحد الموظفين العموميين يؤكد أن ذكره ومرتبته يضيف ثقلا للالتماس المقدم من إيزيدوروس وأن شهادته سوف تضفى دعماً لدعوى إيزيدوروس(١٣٠) .

أما إذا انتقلنا إلى «الراهب» المذكور فى الوثيقة وهو إسحاق فيذكره إيزيدوروس فى التماسه مع الشماس أنطونينوس بصورة مساوية، وارتباطه

بالشماس فى الوثيقة يرجح أنه كان على صلة ما بالكنيسة وأنه لم يكن راهباً من أحد الأديرة النائية التى يؤمها النساك. ونظراً لعدم وجود تفاصيل حوله يمكن افتراض أن هذا الراهب ينتمى لقرية كرانيس وأن الإشارة إليه فى وثيقة مدنية تنطوى على أنه بوجوده أكسب إيزيدوروس ـ مقدم الالتماس ـ أماناً واطمئناناً[١٣١]. ولكن هذا المفهوم للرهبنة يتعارض مع المفهوم المتعارف عليه من أنها نسك وتعبد واعتزال للمجتمع ولجوء إلى أديرة فى الصحراء. فما هو التفسير المحتمل لهذا الأمر الذى يبدو متناقضاً؟

لمحاولة الإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نحاول معرفة مفهوم الرهبنة فى ذلك العصر، إن أول ذكر لكلمة μοναχός عند كاتب كنسى نجدها فى تعليق يوسيبيوس القيصرى على المزامير وهو تعليق يبدو أنه كتبه فى أوائل العقد الأخير من حياته الذى بدأ عام ٣٣٠م، إن يوسيبيوس يعطى تأملاته وانطباعته حول معنى ومغزى التراجم الإغريقية الأربعة المختلفة للمزمور ٧/٦٧: إن أحد هذه التراجم يستخدم كلمة μοναχοί لتعبير عن الرهبان وتعتبر أن هؤلاء «الرهبان هم الصف الأول من الذين ينعمون بالمسيح وأنهم قلة نادرة»، وفى ترجمة أخرى يطلق عليهم μονογενεῖς بمعنى أنهم هم وحدهم دون سواهم الذين أنجبوا وتم تشبيههم بابن الرب الذى أنجبه دون سواه، وفى رواية ثالثة وهى الترجمة السبعينية للتوراة التى تصفهم بأنهم «من يلتزمون بطريق واحد، ولا يسيرون فى سبل متعددة ولا يغيرون طريقهم ونهجهم وهم الذين يسيرون فى طريق مستقيم يؤدى إلى ذروة الفضيلة»، وفى رواية رابعة يوصفون بأنهم «وحدهم الذين يحيطهم نطاق μονόζωνοι وأنهم يحيون حياة منفردة منعزلة وطاهرة[١٣٢]. μονήρη καὶ ἁγνὸν κατορθοῦντες

وتفسر بقية الفقرة عند يوسيبيوس القيصرى المقصود بعبارة هم وحدهم

الذين يحيط بهم نطاق «إذ يذكر أن المسيح قال يوصى حوارييه ألا يكنزوا ذهباً أو فضة فى أحزمتهم ، ومن هنا يوصفون عند يوسيبيوس وعند بعض رواياته التى يعلق عليها بأنهم وحدهم الذين يشدون الأحزمة حول أنفسهم وهى أحزمة خاوية لا مال فيها، ويكبحون جماح شهوتهم الجنسية: ὡς ἄν μονήρεις καὶ καθ᾽ ἑαυτοὺς ἀνεζευγμένος

على أية حال فإن الروايات أو الترجمات الإغريقية الأربعة التى يعلق عليها يوسيبيوس والخاصة بالمزمور ٧/٦٧ المتعلق بالرهبنة يجمعها قاسم مشترك وهو وصف هؤلاء الرهبان بالوحدة والتفرد عن غيرهم فى صفة أو سمة بعينها وكلها تبدأ بالصفة μόνος الدالة على الوحدة والتفرد مركبة مع الصفة الأخرى التى يضيفها صاحبها عليهم : فهم متفردون فى الألم والمعاناة وهو المعنى اللغوى القاموسى لكلمة μοναχός ربما بحكم قدرة الرهبان الفريدة على الحياة الخشنة المتقشفة، أو هم وحدهم الذين أنجبهم الرب μονογενεῖς أسوة بالمسيح ابن الرب الذى أنجبه دون سواه ـ حسبما يعتقد المسيحيون ـ وبالتالى فإن مرتبتهم عالية عند الرب، وهم متفردون فى أتباعهم لمنهاج وسبيل واحد μονότροποι يؤدى بهم إلى ذروة الفضيلة ولا يجعل السبل تتفرق بهم، كما أنهم متفردون عن غيرهم فى الإنعزال والبعد عن الدنيا وزخرفها وشد الأحزمة الخاوية من الذهب والفضة حول أنفسهم، وفى انتهاج حياة قوامها الانعزال والتطهر الذى لا تلوثه أية أدران.

إذن فإن أهم مقومات الرهبنة كما وردت فى هذه الروايات هى القدرة على التحمل والمعاناة والانعزال عن المجتمع والبعد عن زخرف الدنيا والعيش فى حياة طاهرة نظيفة وكبح جماح الشهوة الجنسية أو العيش فى تبتل بل زواج[١٣١].

ولكن نعود مرة أخرى إلى الراهب إسحاق الذى ورد ذكره فى الوثيقة البردية التى بدأنا بها الحديث عن موضوع الرهبنة لنجد أنه لا تنطبق عليه أهم شروط الرهبنة وهو الانعزال عن المجتمع واللجوء إلى أديرة الصحراء فهذا الراهب يسير فى طريقه إلى قرية كرانيس بين المزروعات بمعية أحد رجال الكنيسة هناك وهو الشماس أنطونينوس ويتدخل لفض مشاجرة فى الطريق ويذكر اسمه فى هذا الالتماس المقدم لأحد رجال الإدارة مما يدل على أنه كان معروفاً لأهل القرية وكان دائم التردد عليها.

إن التفسير لهذا الموقف نجده عند القديس جيروم (٣٤٧م - ٤٢٠م). الذى تحدث عن ثلاثة أنواع من الرهبان فى مصر فمنهم الرهبان النساك فى الأديرة Coenubium وهؤلاء يتحدثون لغة قومية متوارثة gentili Lingua ويمكن القول بأنهم يعيشون فى تجمعات in commune viventes، والرهبان المعتزلين anachoretae الذين يعيشون بمفردهم فى الأماكن الصحراوية المهجورة وأطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم ينسحبون ويبتعدون عن الناس، أما النوع الثالث من الرهبان فيطلق عليهم سان جيروم اسم remnouth ويهاجمهم بضراوة وعنف قائلا أنهم أسوأ الرهبان وأكثرهم إهمالا وأنهم كانوا يسكنون كل اثنين أو ثلاثة على الأكثر معاً ويعيشون حسب ما يتراءى لهم وحسب قدرتهم وطاقتهم. وكانوا يتجمعون جماعات وسط الجموع التى يعملون بينها حتى يحصلوا على غذائهم، وأغلبهم كانوا يقطنون المدن والقرى، ونظرا لأن المهارة والحيلة هى الأمر المقدس لديهم وليس الحياة فإنهم كانوا يبيعون أى شىء بسعر أغلى من ثمنه، وغالباً ما نجد بينهم البغضاء والمشاحنات، ولم يكونوا يطيقون أن يخضعوا لأحد لأنهم كانوا يعيشون ليأكلوا فقط، كما نجد بينهم الشغف بكل شىء: بالأكمام الطويلة والأحذية والملابس، وأنفاسهم

ثقيلة وهم شغوفون كذلك بزيارة العذارى، ويسب علاقاتهم برجال الكنيسة، ويذكر أنهم فى أيام الأعياد يسرفون فى الطعام حتى يصابوا بالتخمة ويتقيأون(١٣٤).

واضح إذن أن ذلك النوع الثالث من الرهبان الذين يهاجمهم سان جيروم ربما ينطبق على حالة الراهب إسحاق فى قرية كرانيس الذى ورد فى التماس إيزيدوروس(١٣٥) إذ ربما كان هذا الراهب من بين الرهبان الذين يعيشون فى قرية كرانيس وعلى صلة برجال الكهنوت فيها كما يتضح من مرافقته للشماس أنطونينوس.

نعود الآن لمتابعة تطور تاريخ الرهبنة فى مصر: ربما كان أول من لجأ إلى الصحراء وانعزل عن الناس وعاش حياة النسك والوحدة فى الصحراء للعبادة والتأمل والتكفير عن الخطأ شخص يدعى بولا الطيبى الذى كتب جيروم قصة حياته ـ وإن شكك البعض فى مدى مصداقية هذه السيرة كوثيقة تاريخية واعتبروها مجرد مقالة كتبها سان جيروم فى مجال سير القديسين ـ وصوّره فى صورة ناسك مثالى فرّ إلى الصحراء وهو فى سن السادسة عشرة لكى يفلت من اضطهاد ديكيوس واستقر فى نهاية الأمر فى الصحراء الشرقية قرب الدير الذى أطلق اسمه عليه (دير الأنبا بولا) الذى ربما أقيم فى القرن الخامس أو السادس الميلادى (١٣٦).

أما عن مؤسس الرهبنة فى مصر فهو الراهب انطونيوس الذى تُعزى كتابة سيرته إلى البطريرك أثناسيوس صديقه وراعيه الروحى. ولد أنطونيوس حوالى عام ٢٥١ فى مصر الوسطى فى قرية كوما القريبة من هيراكليوبوليس (إهناسيا) لأبوين ميسورى الحال نسبياً يتحدثان اللغة المصرية وقد توفيا وهو فى الثامنة

عشرة أو العشرين من عمره وتركا له أخته الصغرى ليرعاها. ولم يكن هو يتحدث الإغريقية وعلى الرغم من كونه غير أمي فإنه لم يتلق تعليماً على النمط الإغريقي. وبعد وفاة أبويه بستة أشهر سمع أنطونيوس قول يسوع وهو يُتلي في الكنيسة وهو يقول لأحد الشباب «إن كنت تنشد الكمال فاذهب وبع ما لديك واعطه للفقراء ولسوف يكون لك كنز في السماء : ثم تعال واتبعني» (انجيل متى ١٩ :٢١). وقد فسر أنطونيوس هذه الكلمات حرفياً وتصرف في أملاكه وسلعه باستثناء مبلغ صغير أبقاه لإعالة أخته ومارس حياة الرهبنة والنسك بالقرب من قريته في بادئ الأمر وكان يتلقى التعليمات من ناسك قديم، ثم اعتكف بعد ذلك بعيداً عن قريته في قبر مهجور وكان أحد أتباعه يحضر له الخبز من حين لآخر. وفي حوالي عام ٢٨٥م انسحب إلى بقعة نائية أكثر فأكثر في قلعة مهجورة عبر النهر أطلق عليها في سيرة أنطونيوس اسم «بيسبير» وهو مكان يحتفظ التراث المحلي بذكراه في دير الميمون، وفي ذلك المكان كان الخبز يصله مرتين سنوياً وكانت الرطوبة المتسربة تمده بمياه الشرب. ومن هناك انتشرت سمعته ولكنه أصم أذنيه أمام توسلات من كانوا يأتون لطلب نصحه ومشورته الروحية حتى اقتحموا عليه خلوته آخر الأمر، وأقام هؤلاء الأتباع لهم نمط حياة هناك وبعد ذلك انطلق إلى أعماق الصحراء ووجد الملاذ والمأوى في جبل «كولزون» على مسيرة ثلاثة أيام بمحاذاة وادى العربة وهو طريق القوافل المؤدى من النيل عند بنى سويف إلى البحر الأحمر بعد أن أمضى عشرين عاماً في الميمون وضاق بعد ذلك بقطع خلوته المتكرر بسبب شهرته وما جلبته من توافد الأتباع عليه. وفي مكانه الجديد توافد عليه أتباع جدد وألحوا عليه وأزعجوه وأقاموا مجتمعاً ثانياً لا يزال ديراً حتى اليوم هو «دير مار أنطونيوس» المطل عبر خليج السويس نحو جبال سيناء، ويقال أنه عاش

هناك فى أعلى الدير حيث اشتهر عنه أنه عاش هناك حتى بلغ عمره ١٠٥ سنوات وتوفى هناك عام ٣٥٦م.

إن الميراث الذى تركه أنطونيوس يتمثل فى أنه أسس درجة ما من التنظيم الرسمى لحركة الرهبنة، وقد لقى فى مهمته دعماً وتأييداً من البطرير الكبير أثناسيوس الذى طبع حركة الرهبنة ـ التى كانت فى الأساس حركة غير كهنوتية ـ بطابع رسمى وأعطاها موافقة واعترافاً كنسياً، ومع ذلك لم تتم صياغة قواعد مكتوبة أو دستور للرهبنة ولم يفرض عهد بالطاعة لشخص أسمى مرتبة، وإنما كان يسمح لكل راهب فى نمط الحياة الدينية بحرية انتهاج الطريق الذى يرونه مناسباً للخلاص والإنقاذ وكانوا يحيون حياة صلاة وعبادة وتكفير عن الذنوب فى صوامعهم Cells المتباعدة عن بعضها البعض(١٣٧).

ويبدو أن تأييد ودعم أثناسيوس للرهبان كان من بين أهدافه كسب دعمهم وتأييدهم له ضد خصومه من أنصار آريوس من المعتقدين فى مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح، وكان أثناسيوس يحاول تعبئة الرهبان وحشدهم ضد تسرب أنصار آريوس بين صفوفهم. وهناك نسخة نقشية من خطاب كان موجهاً من أثناسيوس لهولاء الرهبان هذا نصه:

«من أثناسيوس إلى الرهبان الأرثوذكس فى كل مكان ممن يمارسون حياة الوحدة والانعزال والراسخين فى إيمانهم بالمسيح ـ تحية من الرب إلى الأخوة الأحباب الذين نشعر بغاية الشوق والحنين إليهم»(١٣٨).

إن بولا الطبى وأنطونيوس يعتبران ـ حسبما رأينا من سيرتهما ـ من نوعية الرهبان المعتزلين anachoretae التى رأيناها فى تصنيف سان جيروم لرهبان مصر أعلاه إذ ابتعدوا عن الناس ولاذوا بالصحراء للتعبد والتأمل ورغم أن ثانيهما

لاحقه المريدون والأتباع وعكروا صفو خلوته إلا أنه لم يُقم مجتمعات رهبنة ذات قواعد محددة تحكمها كما سبق أن ذكرنا وإنما تركت المسألة لتقدير كل راهب فى اختيار طريقه للنجاة والخلاص. أما أول من وضع نظاماً محدداً واضح المعالم لمجتمعات الرهبان يخضع له جميع الرهبان، أو بعبارة أخرى أول من وضع أسس الرهبنة المنظمة coenobium فإنه كذلك مصرى أخر يدعى باخوميوس الذى توفى عام ٣٤٩م.

ولد باخوميوس فى أواخر القرن الثالث الميلادى قرب إسنا فى صعيد مصر ولم يكن يعرف اليونانية مثل أنطونيوس، ولكنه تعلمها فى مرحلة متأخرة من حياته لكى يعلم من خلالها الأجانب الذين سعوا للانضمام إليه. كان أول اتصال لباخوميوس بالمسيحيين عندما كان مجنداً بالجيش الرومانى عندما استقبلت وحدته التى ينتمى إليها بكرم وحفاوة من المسيحيين أثناء توقفها القصير فى طيبة. وبعد أن سُرِّح من الخدمة فى سن مبكر عُمِّد فى منطقة مجاورة تسمى خينو بوسكيون (حالياً تسمى القصر والصياد كما يذكر جون بول فى كتابه ص ١٤٤، انظر هامش رقم ١١٧) وأصبح بعد ذلك من أتباع الراهب بالايمون. وفى حوالى عام ٣٢٠م أقام مجتمعاً للرهبان فى قرية مهجورة تدعى تابينيسى قرب أخميم تنفيذاً لرؤيا رآها فى منامه. وإذا كان الرهبان فى ظل أنطونيوس كانوا يعيشون فى صوامع صغيرة أو قلايات Laura تتمتع بالاستقلالية وكانت فى صورة تجمعات من الصوامع لها مكان اجتماع مشترك، فإن حياة الرهبان فى ظل باخوميوس قد نظمت فى أدق تفاصيلها من خلال قواعد رسمية مدونة. وكان المنضمون لهذه الجماعات من الرهبان ينزلون فى «منازل» حسب الحرف التى يمتهنونها، وكان لكل منزل رئيسه الذى كان مسئولا أمام كبير الدير عن تعليم ونظام رهبانه. وكان من يتقدم

بطلب للانضمام لهذه الأديرة يُلزم بأن يقضى بعض الوقت كفترة اختبار فى دار ضيافة ويتعلم خلال هذه الفترة ويحفظ عن ظهر قلب أدعية وصلوات معينة ويتعلم قواعد الرهبنة قبل أن يسمح له بالانضمام للجماعة وارتداء مسوح الرهبان. وكان لابد من القيام بالعمل فى الدير بما فيه زراعة الأرض لأنه لابد من توفير الاكتفاء الذاتى لمجتمع الدير. ولم يكن هناك إفراط فى الصيام أو مبالغة فى إظهار واستعراض أشكال النسك والزهد أو فى طول الصلوات مما قد ينجم عنه ضعف وهزال جسمانى للأفراد من الرهبان.

وقد لاقى هذا النظام الذى أرساه باخوميوس نجاحاً فورياً وانتشرت مؤسسات الرهبنة التى تتبعه فى أماكن نائية مهجورة حتى بلغت عند وفاته حوالى عام ٣٥٠م أحد عشر مؤسسة منها اثنتان للنساء. بذلك أصبح نظام الرهبنة المنظمة Coenobium هو القاعدة للرهبنة فى مصر العليا والوسطى[١٣٩].

نكتفى بهذا القدر من الحديث عن نشأة المسيحية حتى حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى، وإن كان الموضوع متعدد الجوانب ويحتاج لمزيد من المعالجة فى مقالة أو مقالات أخرى بإذن الله إلا أن الباحث اختار فى بحثه هذا نقاطاً معينة من الموضوع وألقى بعض الضوء عليها.

والله الموفق والمستعان

(1) H.I.Bell, Cults and Creeds in Gracco-Roman Egypt, Liverpool, 1954, pp. 79-82.

(2) Tertullian, Apologeticus, 5.2:

Tiberius ergo, cuius tempore nomen christianum in saeculum introivit, adnuntiata sibi ex Syria Palestina, quae illic veritatiem ipsius divinitatis revelaverant, detulit ad senatum cum praerogative suffragii sui. Senatus, quia non ipse probaverat, respuit, Caeser in sententia mansit, comminaus periculum accusatoribus christianorum.

(3) Ibid, 5.1:

Vetus erat decretum, ne qui deus ab imperatore consecrartur nisi a senatu probatus.

(4) Ibid.

(5) Ibid., 21.18:

ut postremo oblatum Pontio Pilato, Syriam Tune ex parte Romana procuranti, violentia suffragiorum in crucem Iesum dedi sibi extorserint.

(6) Ibid., 21.24 :

Ea omina super Christo Pilatus, et ipse iam pro sua conscientia Christinus, Caesari tunc Tiberio nuntiavit. Sed et Caesares

credidissent super Christo, si aut Caesares non essent necessarii saeculo, aut si et Christiani potuissent esse Caesares.

(7) Eusebius, Ecclesiastical History (Loeb), vol. 1, Introduction, p. XI.

(8) Ibid., 2.2.2:

Τῇ δ' ἀληθείᾳ, ὅτι μηδὲ τῆς ἐξ ἀνθρώπων ἐπικρίσεώς τε καὶ συστάσεως ἡ σωτήριος τοῦ θείου κηρύγματος ἐδεῖτο διδασκαλία.

(9) Ibid., 2.2.6:

ὁ δὲ ἐν τῇ αὐτοῦ ἀποφάσει ἔμεινεν ἀπειλήσας "θάνατον" τοῖς τῶν Χριστιανῶν κατηγόροις.

(10) Suetonius apud Harold Mattingly, Christianity in the Roman Empire, New York, 1967, p. 30.

(11) Eusebius, Ecclesiastical History, 2.3.2:

καὶ δῆτα ἀνὰ πάσας πόλεις τε καὶ κώμας πληθούσης ἅλωνος δίκην, μυρίανδροι καὶ παμπληθεῖς ἀθρόως ἐκκλησίαι συνεστήκεσαν.

(12) H. Mattingly, op. cit., p. 31

(13) Ibid.

(14) Tacitus, Annals, 15.44:

(15) H.Mattingly, op. cit., pp. 32-33.

(16) Tertullian, op. cit., 5.3.

Consulite commentarios vestors, illic reperietis primum Neronem in hanc sectam cum maxime Romae orientem Caesariano gladio ferocisse. Sed tali dedicatore damnationis nostrae etiam gloriamur. Qui enim scit illum, in tellegere potest non nisi grande aliquod bonum a Nerone damnatum.

(17) Eusebius, op. cit., 2.25 . 2-3.

(18) Ibid., 2.25 .5.

Παῦλος δὴ οὖν ἐπ' αὐτῆς Ῥώμης τὴν κεφαλὴν ἀποτμηθῆναι καὶ Πέτρος ὡσαύτως ἀνασκολοπισθῆναι κατ' αὐτὸν ἱστοροῦνται.

(19) H.I. Bell, op. cit., p. 82; H.Mattingly, op. cit., p. 33; M.Rostovtzeff, Rome (Translated from Russian by J.D.Duff) Oxford University Press, 1960, p. 302.

(20) Tertullian, op. cit., 40.2.

Si Tiberis ascendit in moenia, si Nilus non ascendit in arva, si caelum stetit, si terra movit, si fames, si lues; statim Christianos ad leonem adclamatur.

(21) Tacitus, Historiae, Fragmenta, apud Sulpicius Severus Chron. 2.30.6.

(22) H. Mattingly, op. cit., p. 35.

(23) Michael Grant, The Roman Emperors, New York, 1985; pp. 63-64.

(24) H. Mattingly, Loc. cit.

(25) Eusebius, op. cit. 3.17:

Τελευτῶν τῆς Νέρωνος θεοεχθρίας τε καὶ θεομαχίας διάδοχον ἑαυτὸν κατεστήσατο. δεύτερος δῆτα τὸν καθ'ἡμῶν ἀνεκίνει διωγμόν·

(26) Eusebius, op. cit., 1.8.

(27) Ibid., 2.16.1:

Τοῦτον δὲ [Μάρκον] πρῶτόν φασιν ἐπὶ τῆς Αἰγύπτον στειλάμενον, τὸ εὐαγγέλιον, ὃ δὴ καὶ συνεγράψατο, κηρῦξαι, ἐκκλησίας τε πρῶτον ἐπ' αὐτῆς Ἀλεξανδρίας συστήσασθαι

(28) H.I. Bell, op. cit., p. 79.

(29) P.London 1912, LL. 96-100.

(30) H.I.Bell, op. cit., p. 78.

(31) Ibid., p. 79.

(32) Pliny The Younger. Epistulae, 10.96

(33) Ibid., 10.97:

(34) H.Mattingly, op. cit., pp. 41-42.

(35) SHA. Saturninus 8. apud. H.Kraft, Early Christian Thinkers (Series of World Christian Books, vol. no. 52), London, p. 9.

(36) Ibid., pp. 9-10.

(37) Justin Martyr, Apologia, 1.69; Eusebius, op. cit., 4.9 (Translated, of course, from Latin to Greek).

(38) Eusebius, op. cit., 4.12:

ὑπὲρ τῶν ἐκ παντός γένους ἀνθρώπων ἀδίκως μισουμένων καὶ ἐπηρεαζομένων Ἰουστῖνος Πρίσκου Βακχείου τῶν ἀπὸ Φλαυίας Νέας πόλεως τῆς Συρίας Παλαιστίνης, εἷς αὐτῶν, τὴν προσφώνησιν καὶ ἔντευξιν πεποίημαι·

(39) Ibid., (Loeb, vol. 1, 1975 by Kirsopp Lake), p. 332, note 1.

(40) Ibid., 4.13. particularly 6-7:

οἷς καὶ ἀντέγραψεν μηδὲν ἐνοχλεῖν τοῖς τοιούτοις, εἰ μὴ ἐμφαίνοιντό τι περὶ τὴν Ῥωμαίων ἡγμονίαν ἐγχειροῦντες· εἰ δέ τις ἐπιμένοι τινὰ τῶν τοιούτων εἰς πράγματα φέρων ὡς δὴ τοιοῦτον, ἐκεῖνος ὁ καταφερόμενος ἀπολελύσθω τοῦ ἐγκλήματος καὶ ἐὰν φαίνηται τοιοῦτος ὤν, ὁ δὲ καταφέρων ἔνοχος ἔσται δίκης·

(41) Ibid., 4.15.

(42) Ibid., 4.16.

(43) Tertullian, op. cit., 5.6-7:

Sicut non palam ab eiusmodi hominibus poenam dimovit, ita alis modo palam dispersit, adiecta etiam accusatoribus damnatione, et quidem tetriore. Quales ergo leges iste quas adversus nos soli exercent impii, iniusti, turpes, truces vani, dementes? .... etc.

(44) R. Goseph Hoffmann, Celsus, On the True Doctrine, Oxford, 1987, Introduction, pp. 24-25.

(45) Lucian, vol. v (Loeb Classical Library), The Passing of Peregrinus, 9-21.

(46) Ibid., 11-14.

(47) R.Joseph Hoffmann, op. cit., p. 29.

(48) Ibid., p. 30.

(49) Ibid., pp. 33-44.

عن التفاصيل الكاملة لآراء كيلسوس وهجومه على المسيحية - أنظر الترجمة الانجليزية الكاملة لهذا المؤلف في نفس المرجع المشار إليه في هذا الهامش في الصفحات 126-53.

(50) Eusebius, op. cit., 6. 1-2, 23-24, 39.

(51) Origen, Contra Celsum, Introd. 1.3.6. apud H. Kraft, Early Christin Thinkers, pp. 60-61.

(52) Origen, Against Celsus, 5.26 apud R. Goseph Hoffman, op. cit., p. 33.

(53) Origen, Contra Celsum, 1.68 apud H. Mattingly, op. cit., p. 85.

(54) Oxford Companion to Classical Literature, Oxford, 1989. Art. Tertulian.

(55) Tertullian, Apologeticus, (Loeb Classical Library) 1.7.

(56) Ibid., 37.4.

(57) Ibid., 2.8.

(58) Ibid., 46.4-5.

(59) Ibid., 2.2-5.

(60) Ibid., 38.4-5.

(61) Ibid., 39. 1-3.

(62) Ibid., 39.7.

(63) Minucius Felix, Octavius (Loeb), Introduction, p. 304.

(64) Ibid., pp. 306-311.

(65) Ibid., p. 304.

(66) Minucius Felix, Octavius, 7.

(67) Ibid., 9.

(68) Ibid., 10. 1-2.

(69) Ibid., 11. 2-3.

(70) Ibid., 16.

(71) Ibid., 17-19.

(72) Ibid., 20-24.

(73) Ibid., 28. 1-2.

(74) Ibid., 28. 7-9.

(75) Ibid., 29.2.

Nam quod religioni nostrae hominem noxium et crucem eius adscribitis, longe de vicinia veritatis potuisse, qui putatis deum credi aut meruisse noxium aut terrenum. Ne ille miserabilis, cuius in homine mortali spes omnis innititur: totum enim eius auxilium cum extincto homine finitur.

(76) Ibid., 29. 6-7.

Cruces etiam nec colimus nec optamus. Vos plane, qui. ligneos deos consecratis, cruces ligneas ut deorum vestrorum partes forsitan adoratis. Nam et signa ipsa et cantabra et vexilla castrorum quid illud quam inauratae cruces sunt et ornatae?

(77) Ibid., 32. 1-6.

(78) Ibid., 10.4.

(79) Ibid., 33. 2-5.

(80) Ibid., 34. 11-12.

(81) Ibid., 35.6.

(82) Eusebius, op. cit., 6.1.

(83) H.Mattingly, op. cit., p. 43.

(84) Eusebius, op. cit., 28.

(85) Mattingly, loc. cit.

(86) Eusebius, loc. cit.

(87) H.Mattingly, loc. cit. Cf. Eusebius, op. cit., 6. 34.

(88) See

H.I.Bell, Cults and Creeds, p. 85; C.H.R. Horsley, New Documents Illustrating Early Christianity (A Review of the Greek Inscriptions and Papyri published in 1977), Macquaire University, 1982, no. 105: A libellus of the Decian persecution, pp. 180-185.

أما عن الـ ٤١ شهادة التى نشرت معاً فقد نشرها :

J.R. Knipfing, "The Libelli of The Decian Persecution" in Harvard

Theological Review, 16, pp. 345-390.

وعن الشهادات الأربعة المنشورة لاحقاً – انظر

C.G. R Horsly, op. cit., p. 181.

(89) H. I. Bell, Loc.Cit.

(90) C.H.R. Horsley, op. cit., p. 183.

(91) Wilcken, Chrestomatie 125; J.R. Knipfing, Art. Cit., no. 3.

(92) H.I.Bell, Loc. Cit.

(93) C.H. Horsley, op. cit., p. 182.

(94) Knipfing, No. 7 and no. 30.

(95) Knipfing, No. 37, Narmouthis, 4/6/250.

(96) Cf. J.Molthagen, Der romische Staat und die Christen im zweiten und dritten Jahrhundert, 1970, pp. 81-82.

(97) Eusebius, op. cit., 6. 39.1.

(98) Joseph Vogt, Zur Religiosität der Christen verfolger im römischen Reich, Heidelberg, 1962, S. 21.

(100) Cyprian, "De Lapsis" apud C.H.R. Horsley, op. cit., p. 184.

(101) Ibid., p. 183.

(102) Michael Grant, The Roman Emperors, New York, 1985, p. 157.

(103) Ibid.

(104) H.Mattingly, op. cit., p. 43.

(105) C.H.R. Horsley, op. cit., 181-182.

(106) See, for example, J.R. Knipfing, HTR 16, 1923, pp. 345-390, No. 37, LL. 5-11:

· ἀεὶ μὲν τοῖς θεοῖς θύων | δ[ι]ατετέλεκα καὶ νῦν δὲ | κατὰ τὰ κελευσθέντα ἐπὶ πα|ρ[ό]ῦσιν ὑμῖν ἔθυσα [καὶ ἔ-]| σπ[ει]σα καὶ τῶν ἱερίων ἐγευ-| σάμην καὶ ἀξιῶ ὑμᾶς ὑπο-| σημιώσασθαι·

(107) H.I.Bell, op. cit., p. 86; C.H.R. Horsley, op. cit., p. 185.

(108) M.Grant, op. cit., pp. 167-168.

(109) H.Mattingly, op. cit., pp. 44, 53.

(110) M. Grant, op. cit., p. 172.

(111) C.H.R. Horsley, op. cit., p. 185.

(112) H.Mattingly, op. cit., pp. 56-57.

(113) Ibid., p. 58.

(114) H.I.Bell, Jews and Christians in Egypt, London, 1924 (Vol. VI of the Greek Papyri in the British Museum), pp. 38-41.

(115) Ibid., pp. 38-99.

(116) Ibid., pp. 43-44.

(117) John Ball, Egypt in the Classical Geograhers, Cairo, 1942, p. 63.

(118) P. Lond. 1914, Introd., p. 53.

(119) Ibid., LL. 1-52.

(120) Ibid., Introduction., pp. 54 - 56.

(121) Ibid., L. 7, note.

(122) Ibid., Introd., p. 56.

(123) Ibid., p. 57.

(124) Ibid.

(125) P. London 1915 and its introduction. See also 1916.

(126) C.H.R. Horsley, New Documents Illustrting Early Christianity. A Review of the Greek Inscriptions and Papyri published in 1977. The Ancient History Documentary Research

Centre, Macquaire University, 1982, No. 106. The Trial of the bishop Phileas, pp. 185-191, introd., pp. 185-86.

(127) Ibid., pp. 186-188.

(128) P. Collectanea Papyrologica (=P. Coll. Youtie) II. 77, edited and translated by N. Lewis (1976), LL. 13-16:

— καὶ εἰ μὴ βοηθείας ἐτυχο(ν) ὑπὸ | τῶν παραγενομένων Ἀντωνίνου διάκο-|νος καὶ Ἴσακ μοναχοῦ ταχέως τέλεόν με ἀπώλεσαν.

(129) E.A. Judge. The Earliest Use of Monachos for Monk (P. Coll. Youtie 77) and the Origins of Monasticism, (Jahrbuch fur Antike und Christentum, Jahrgang 20, 1977), pp. 72-89.

(130) Ibid., pp. 72-73. See also: S.B. VI. 5 (1963), 9622, Theadelphia, 6 April 343 A.D.; P. Abinnaeus 55 (1962), Fayoum, 11 February 351 A.D.; etc...

(131) Judge, art. cit., pp. 73-74.

(132) Eusebius 23, 689 B and C apud E.A. Judge, Art. Cit., note 6, p. 74:

τὸ γοῦν πρῶτον τάγμα τῶν ἐν Χριστῷ προκοπτόντων
τὸ τῶν μοναχῶν τυγχάνει· Σπάνιοι δέ εἰσιν οὗτοι.
διὸ κατὰ τὸν Ἀκύλαν μονογενεῖς ὠνομάσθησαν
ἀφωμοιωμένοι τῷ μονογενεῖ Υἱῷ τοῦ Θεοῦ· κατὰ
δὲ τοὺς Ἑβδομήκοντα μονότροποι τυγχάνουσιν,
ἀλλ' οὐ πολύτροποι, οὐδὲ ἄλλοτε ἄλλως τὸν ἑαυτῶν
μεταβάλλοντες τρόπον, ἕνα δὲ μόνον κατορθοῦντες,
τὸν εἰς ἄκρον ἥκοντα ἀρετῆς· Μονοζώνους δὲ αὐτοὺς
ἡ πέμπτη ἔκδοσις ὠνόμασεν, ὡς ἂν μονήρεις
καὶ καθ' ἑαυτοὺς ἀνεζωσμένους. Τοιοῦτοι δὲ πάντες
εἰσὶν οἱ τὸν μονήρη καὶ ἁγνὸν κατορθοῦντες βίον,
ὧν πρῶτοι γεγόνασιν οἱ τοῦ Σωτῆρος ἡμῶν μαθηταί
οἷς εἴρητο." Μὴ κτήσησθε χρυσόν, μηδὲ ἄργυρον
εἰς τὰς ζώνας ὑμῶν .... κτλ.

(133) E.A. Judge, Art., Cit., pp. 74-76.

(134) Ibid., p. 79 where the Latin text of St. Jerome (Ep. 22.34) is presented :

Tria sunt in Aegypto genera monachorum: coenobium, quod illi sauhes gentili lingua vocant, nos in commune viventes possumus appellare'; anachoretae, qui soli habitant per deserta et ab eo, quod procul ab hominibus recesserint, nuncupantur; tertium genus est, quod dicunt remnouth, deterrimum atque neglectum et quod in nostra provincia aut solum aut primum est. hi bini vel

terni nec multo plures simul habitant suo arbitratu ac dicione viventes et de eo, quod laboraverint, in medium partes conferunt, ut habeant alimenta communia. habitant autem quam plurimum in urbibus et castellis, et, quasi ars sit sancta, non vita, quidquid vendiderint, maioris est pretii. inter hos saepe sunt iurgia, quia, suo viventes cibo non patiuntur se alicui esse subiectos, apud hos affectata sunt omnia: Laxae manicae, caligae follicantes, vestis grossior, crebra suspiria, vistiatio virginum, detractio clericorum, et si quando festior dies venerit, saturantur ad vomitum.

(135) E.A.Judge, Loc. Cit.

(136) A.F. Shore, Christian and Coptic Egypt (Chapter 14 in the Legacy of Egypt, Oxford, 1987, pp. 390-433), pp. 401-402.

(137) Ibid., pp. 404-405.

(138) S.B. 8698, LL. 4-9 apud E.A. Judge, Art. Cit., p. 77:

[Ἀθ]ανάσιος τοῖς ἀπ[αν]ταχοῦ ὀ[ρθ]οδόξοις
μοναχο[ῖς τοῖς τὸν μ]ο[ν]ήρη βίον ἀσκοῦσ[ι καὶ
ἐν πίστ]ει Χ[ριστο]ῦ ἱδρυμένοις, ἀ[γαπητοῖς
καὶ] πο]θεινοτάτοις [ἀδελφοῖς ἐν κυρ]ίῳ
χαίρειν

(139) A.F.Shore, Art. Cit., pp. 407-408. Cf. H.I. Bell, Cults and Creeds .... pp. 99-100.

رقم الإيداع
I. S. B. N
977 - 273 - 113
٧٣٠١